علمت أنى إن تركت القلعة فى يدى وأصابنى الموت أخذها أولاد أخى بعد ولدى، وما آثرت ذلك، وآثرت أن أمنعهم من ذلك بعده وسلمتها إليك » ، فرق له شرف الدين عند ذلك وقال : « لو أعلم هذا ما قتلته » .

وأخذ شرف الدين منها أموالا وذخائر عظيمة ، ورحل عنها بعد ما سلمها للشيخ واستحلفه أنه متى (٢٣ ب) طلبها وسير إليه من يكون فيها سلمها إليه ، وتوجه [شرف الدين] إلى قلعة حسن فنزل عليها أياما ولم يقدر منها على شىء ، وكان أهلها ينزلون فيقاتلون فى الوطا ، فرحل عنها ومضى إلى ناحية جهة مطاطة ونازلها ، وهى بلد ما بين قابس وقفصة ، وإلى قابس أقرب مقدار نصف نهار فنزل عليها وقاتلها أياما .

* * *

ودخلت سنة سبع وسبعين وخمس مائة :

فيها نقل المستضىء — قدس الله روحه — من الدار التى كان مدفونا فيها إلى الدار العتيقة لبعض الجهات غربى دجلة من بغداد عند رأس الجسر مجاورة لجامع فخر الدولة بن المطلب ، وكانت العادة أن يدفن الخلفاء بمقابر قريش بالمحلة المعروفة بالرصافة ، إلا المستضىء — رضوان الله عليه — فإنه ذكر عنه أنه أوصى بذلك ، وقيل إن الإمام الناصر لدين الله — صلوات الله عليه — اختار هذه الحال لأجل خريدة أمير المؤمنين لئلا تبعد عليها زيارته ولا تجد من يدله بعد الطريق فاختار ذلك لقربه ، وأقام للموضع فراشين وبوابين فلا يقدر أحد على الدخول لزيارته إلا بإذن ، وأوقف عليه وقوفاً كثيرة وجعل لتربته الراتب من الشموع والوظائف من المخزن الشريف ، وعمل على ضريحه صندوقاً من الساج وغرم عليه مبلغاً من المال .

ولما أراد الخليفة — أيّد الله دولته — حمل الإمام المستضىء بأمر الله من الدار التى كان مدفوناً بها إلى التربة المذكورة فى الجانب الغربى من بغداد أمر بأن تهيأ السفينة المعروفة بالزبزب وقد غرم عليها مالا جزيلا ، [وهى] عجيبة الصنعة يحدف بها ملاحون عدة ، جماعة منهم يحدفون فى الهوى[1] من مؤخرها ، وجماعة يحدفون فى الماء (١٢٤) من صدرها ، فبرز الأمر النبوى بحضور أرباب الدولة وأهل العلم والصوفية والقراء وأشراف الناس على طبقاتهم لتحويل الإمام السعيد المستضىء بأمر الله ، فحضر الناس واكترى كل واحد منهم سفينة على قدر وسعه ، وأخذوا من الشموع مالا يحصى حصرا ولا عدة فأشعل فى تلك الليلة ، فكان الشط بأسره من كلا جانبيه لا يرى فيه موضع خال إلا وفيه سفينة أو سمارية يزحم بعضها بعضا ، فكانت الدجلة تتقد من الجانبين كشعلة نار من كثرة الشموع التى أشعلت فى تلك الليلة ، وكان الناس قياما فى أماكنهم ، والقراء يقرءون القرآن ، وأهل بغداد من الجانبين لا يحصى عدتهم إلا الله تعالى ، بحيث لم يتخلف عن الخروج فى تلك الليلة إلا من هو عاجز لم يقدر على الخروج .

وكان أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب هو المباشر لهذه الحال والمرتب لها ، فنقل رضوان الله عليه ودفن باقى ليلته ، وأحضرت الربعات فكان الناس يقرءون ويختمون . والعلماء يعظون — واحد بعد واحد — إلى أن مضت ثلاثة أيام بلياليهن وهم فى التربة المذكورة ، فلما كان اليوم الثالث — آخرة نهاره — حضر عماد الدين صندل الخادم الخاص وتقدم إلى الناس بالانكفاء ، فتفرقوا .

* * *

(١) فى هامش المخطوطة : « أى فيه مجاديف الهوى فى مؤخرة السفينة » .

وفى هذه السنة تقدم الناصر لدين الله بنقض السفينة المذكورة المعروفة بالزبزب وقال: «لا حاجة أن تكون هذه بالدجلة بإزاء التاج الشريف لترقب من يموت يُحمل بها، وإنى كلما رأيتها تكدرت علىّ الحياة، وإذا مت ما يُتعذّر أن يعمل مثلها»، فأمر بنقضها فنقضت، وكان قد غرم عليها أموالاً عظيمة وكانت من أحسن السفن المركوبة، وكان إذا ورد إلى بغداد سلطان (٢٤ب) وتغلّب على دار الخلافة وأراد الحضور إلى الخدمة فلا يركب إلى التاج الشريف إلاّ فى هذه السفنية.

* * *

ذكر ما جرى وتجدد للملك الناصر صلاح الدين من الأحوال بمصر والشام

ودخلت سنة سبع وسبعين [وخمسمائة] والسلطان مقيم بالقاهرة مواظب[1] على ترتيب أحوال الديار المصرية، ناشر للعدل فى الرعية، باذل لمعروفه وما يسديه من مكارم أخلاقه لقاصديه، إذ وصلته الأخبار بما تجدّد فى الشام من موت الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود.

* * *

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

قد سبق قولنا من قبل فى ذكر الملك الصالح اسمعيل بن محمود بن زنكى وما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه من سوء تدبير مدّبريه، فحين وصل السلطان من مصر إلى الشام لما وصله من احتلال الثغور وأراد إصلاحه وأن يضمّه

---

(١) فى الأصل: «مواظبا».

إليه فصدّه عن ذلك بعض[1] مماليك أبيه ، وظهر منه التأبّى فأخذت[2] بلاده بلجاجهم ، واقتنع بحلب ولم يزل يُحَكّم المسئولين عليه إلى أن قضى نحبه ، فأسرع ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى حلب فاستولى على خزانته ، وعلم أنه لا يستقر له بها أمر ، فرغّب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار فى تعويضها له بحلب ، فتسلّمها وسلّم سنجار إليه .

ولما سمع السلطان بمصر بوفاة الملك الصالح وبلغه ما جرى بعد وفاته ندم على البعد عن الشام ، وشرع فى التوجه من مصر إلى الشام ، فكتب إلى والدى الملك الظفر — رضوان (١٢٥) الله عليه — كتابا ، وكنا حينئذ بحماة وما يجرى معها من الأعمال والولايات ، يأمره بالتأهب[3] والنهوض بعسكره ويعرفه أنه سيدركه إن شاء الله تعالى ، وكان نائبه بدمشق عمى عز الدين فرخشاه قد نهض إلى الكرك فى مقابلة الإبرنس[4] بها ، وكان يحدّث نفسه أن يقصد « تيماء » فى البرية ، وأعدّ لذلك الأزواد والروايا ، فعرف السلطان اشتغاله بتلك الجهة .

وكتب أيضا كتابا إلى الأمير معين الدين عبد الرحمن بن أنر صاحب الراوندان[5] يأمره أن يكون فى مساعدة والدى وتحت رأيه ومعاضدته ، وكان ذلك فى العشر الآخر من شعبان من السنة . مصدّره : « صدرت هذه

---

(١) فى الأصل : « بعد » .

(٢) عبارة : « فأخذت بلاده بلجاجهم » هى نفس عبارة العماد التى أوردها أبو شامة فى الروضتين ٢٣/٢ س ٤ .

(٣) عبارة « بالتأهب والنهوض بعسكره » هى نفس عبارة ابن واصل فى مفرج الكروب ١١٠/٢ س ٨ .

(٤) هو رينو دى شاتيون Reginald de Chatillon المعروف فى المراجع العربية باسم « ارناط » ، راجع
Grousset: Histoire de Croisades, t. II, Runciman: op. cit.

(٥) عرفها مراصد الاطلاع ٥٩٨/٢ بأنها قلعة حصينة وكورة مشجرة من نواحى حلب.

المكاتبة إلى حضرة الأمير ونعم الله عندنا وارفة الظلال ، وافرة النوال ، سائغة الزلال، سابغة الأذيال ، فائضة المنال ، رابضة في حمى الاستقامة والاعتدال، مستزادة منا بالشكر على المزيد ، مستدامة في تأييدها على التأييد ، والحمد لله على ذلك حمدا يؤمن شمل نظامه من التبديد، ويؤذن لمنهج نهجه حدته بالتحديد ، وعندنا من الارتياح إلى بهجته ، واجتلاء أنوار غرّته ، ما يشهد به ضميره الكريم ، والله سبحانه هو الشهيد العليم ، والاجتماع — بحمد الله — قد قرب بعيده ، وقصر متطاول أمده ومديده ، والتدانى لكل ماجنته يد التنائى كاف، والشفاء المقدر لكل مختل ومعتل مسدّد وورد الاعتداد به بحمد الله صاف ، ورداء الالتحاف بالاحتفال لمودته ضافٍ ، وقد عرف ما تجدد من وفاة صاحب حلب ، وهى ولاتينا (٢٥ب) التى لاتثنى عنها عنان الطلب، فإنها فى تقليدنا من أمير المومنين صلوات الله عليه ، وما تركناها للملك الصالح بعد التصرف فيها وحصول حصونها ومعاقلها فى أيدينا إلا رعاية لحقوق أبيه ، ورغبةً فيه ، ولا مانع الآن عنها من يمين معقودة ، ولا عدة معهودة ، وقد وفينا للمتوفى بعهده ، وأرجأنا اليوم معه الأمر إلى غده ، والآن فقد سفر لنا وجه الحق وبان ، ودنا لنا مصعبه وأصحب ودان ، وولدنا تقى الدين هناك بالقرب وعساكرنا جارية على حكمه ، معذوقة عزائمنا بماضى عزمه ، فلتكن أيديكم متساعدة متعاضدة ، ونياتكم وعزماتكم على التعاون متعاقدة ، والقلوب واحدة، والعساكر فى استخلاص الحق مترادفة متوافدة، والأمير أولى من توفر برأيه الصائب وعزمه الثاقب على هذا الأمر المهم ، وجرى من مألوف نفقته ومعهود مناصحته على الرسم ، ونحن واصلون بعون الله تعالى على الأثر بالنصر والظفر، والعديد الأوفر ، والعتاد الأكثر ، وقادمون فى همة ، وعساكر جمة، ومضاء عزمه ، لا عائق لما بلغت وجوه اللهاذم، ولا مانع بحمد الله يُجلى عن وردها ظماء الصوارم ، ومعين الدين أوٍ فى معين ، وأندى يمين ، وأروى وأعذب معين ، وأقرب قرين ، وأشجع ليث عرين ، فلينهض بنفسه وعسكره ، ويوثق فى هذا المقام حسن أثره ، ويعمل عمل المرء لنفسه ، وينتصف ليومه من أمسه » .

ذكر مكاتبة سلطانية الى مجد الدين ابن الصاحب استاذ دار الخلافة المعظمة يصف فيها بلاءه فى الاسلام وجهاده ونصيحته للدولة العباسية ، ويذكر فيها غدر المواصلة ومن تقدمهم .

ذكرنا ذلك مختصرا ، نسختها :

(١٢٦) « أدام الله إقبال سامى مجلس الصاحب وأندى سعاداته ، وأيّد بالنجح إراداته ، وحلّى بالمكارم والمحامد سجاياه وعاداته ، وأنجز بنصرٍ أولياءه وكبت عداته ، ولا زالت أمداد الزيادة له والسعادة نامية ، وآمادٍ عزّه فى سماء مجده مترامية ، وأعين مناوئيه فى مناره عن الطموح إلى ذرى فخاره متغاشية متعامية ، وديم الكرم فى فضاء فضائله من سماء سماحه هامرة هامية ؛ ما سفر وجه وتوجّه سفر ، وقدّر أمر ، وقد أمر بعد ما أصدر مملوك الدار العزيزة — ثبت الله قواعد مجدها ، وشدّ بعرى النصر معاقد سعدها — مطالعاته التى أعرب فيها عن صاحب الموصل وأنه قد طمع فى حلب وطمح إليها ، ومدّ عين التعدّى بالاحتواء عليها ، وأنه نكث الأيمان المبرمة ونقضها ، وترك المراقبة التى فرضها الله بأن رفضها ، فإن حلب وأعمالها داخلة فى ولايتنا دخولاً يشهد به المثال ، وينطق بحقه المنشور العالى[1] ، الموقع له من مقر العظمة والجلال ، بلغه أنه بلغ الفرات وقطعه ، قاطعاً لما أمر الله به أن يوصل من العهد وجسر على عبور جسره بل خسر ، حيث جاوز حدّ التعدى بتعدّى الحدّ ، ووصل إلى حلب ممتريا حلف الخلاف ، متنكباً طريق الإنصاف ، وقد أحوجته قلة عسكره إلى الاستكثار بمن فى البلد من الأجناد والأشباه من رعية البلاد ، هذا وذوو التميز وأهل الرأى والمشورة من أمراء العسكر الحلبى لم يرضوا ولم يرفعوا به راسا ، وما ازدادوا به إلاّ استيحاشاً لا استئناسا ، ومن حلف لهم حيث أكرهوه حلف على المقام إن طابت نفسه بخدمته أو مفارقته إلينا والانحياز عن

---

(١) أى « العالى » .

جهته ، ومن هؤلاء الأمراء ممن هو أحماهم (٢٦ ب) حقيقة واحقهم حمية، وآباهم نفسا ، وأنفسهم آبية من فارقه متاركا ، وشاقه مباكتا ، وذهب مغاضبا، وتحيّز إلى جانبنا وأعرض عنه جانبا ، ووصل إلى نوابنا بالشام متوسلا إلينا لنفسه بآرائه وآرابه ، ورسولاً عمن وراءه من رفقائه وأصحابه ، وشاع[1] أيضاً أن عسكر حلب أغار على الراوندان ، وهى أحد ما فى عملنا ، وتصرفنا له ولولايته شامل ، ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم فى شغلنا ويغريهم ، ويبذل لهم الرغبات ويضريهم ، وقد راسل الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف ، والعلم بالمعتاد منها كاف[2] ، وما تهيّأ للمذكور الوصول إلى حلب إلا بسبب غيبة ابن أخينا فى أقصى بلاد الفرنج فى أول برية الحجاز ، وقد نهض إليهم بالعسكر معترضاً لهم فى الحجاز ، فإن طاغيتهم[3] جمع خيله ورجله ، واستعمل[4] فى الاستكثار من الزاد والآلات والعدد منته وجهله ، وحدثته نفسه الخبيثة بقصد نيماء وهى دهليز المدينة — على ساكنها السلام — واغتنم كون المدينة[5] مخصبة فى هذا العام[6] فقفى ابن أخينا أثره ، وأخذ عليه مورده ومصدره ، وعارض بالعسكر المنصور عدوه المخذول وعسكره ، وذلك بعد أن أمضى عزمه ، وأنضى ركابه وجهده ، ومنع الكافر المخذول وصدّ قصده ، ولم يعلم بوفاة ولد نور الدين رحمه الله إلا بعد عودته من نهضته ، وقد حسن بحمد الله أثر عزمته، واستنفذ بركة وجهه فى غزوته ؛ ولم يشُكّ هو ولا غيره أن صاحب

---

(١) من هنا يبدأ نص الكتاب الوارد فى ابن واصل : مفرج الكروب ٢/١١٠ — ١١٢ مع تبديل ضئيل فى بعض الكلمات لا يخرج موضوع الكتاب عن مضمونه فى كليهما .

(٢) وردت أجزاء من هذه المكاتبة فى أبى شامة : الروضتين ، ٢/٢٣ ولكن على غير هذا الترتيب .

(٣) يقصد بذلك رينودى شاتيون .

(٤) عبارة « واستعمل ... وجهله » فى السطر التالى غير واردة فى ابن واصل : مفرج الكروب ٢/١١٠ .

(٥) « البرية » فى مفرج الكروب ٢/١١٠ .

(٦) من هنا حتى كلمة « الغدر » ص٦٤ س ٢ غير واردة فى مفرج الكروب ٢/١١٠

الموصل لا يتعرّض للبلاد لأمرين : أحدهما أنه لا يتصرّف إلا على الأوامر الشريفة المطاعة التي تأمر بالوفاء وتنهى عن الغدر ، والآخر أنه لا ينقض يميناً ليس في نقضها وجه من (٢٧ ا) الغدر ، والعجب أننا نحامي عن قبر النبي صلى الله عليه وسلم مشتغلين بهمة ، والمذكور [١] ينازع في ولاية هي لنا ليأخذها بيد ظلمه ، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال ، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل إليهم كرائم الأموال[٢] ، وبين بعيد من دار الخلافة المعظمة يفترض الطاعة ، ويستفرغ في مراضيها الاستطاعة. ولا يحل ولا يعقد إلا بمراشدها ، ولا يقوم ولا يعقد ، إلا بمراصدها ولا يصدر ولا يورد إلا عن مصادرها وموارداها ، وبين آخر يدعي أنه أقرب جيرانها ولا يمت بل لا يموت إلا بعصيانها ، ويخطب لأهل الخلاف على الخلافة ويجهر بأسمائها ، وينشر في ولايته راية أعدائها ، وكل يعمل على شاكلة أسلافه ، فهو يمري بيد المراء — كعادتهم العادية — أخلاف أحلافه ، ونحن لا ننتدين إلا بطاعة الإمام ، ولا نرى ذلك إلا من أركان الإسلام ، هذا مع ما نُعدّ في الملة الحنيفية والدولة الهادية العباسية مما لا يعد مثله. أولا لأبي مسلم لأنه أقدم ثم ضام[٣] ، وأمال ثم ألام ، ووالى ثم ونى ، وجلّ وجلا ثم أخلّ وأخلى ، ولا [يعدّ] آخراً لطغرلبك فإنه نصر ونصب ، ثم حجر وحجب ، وقد عرف ما فضلنا الله تعالى به عليهما[٤] في نصر الدولة ، وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها ، وإساغته الغصّة التي ذخر الله لا ساغته في سبقه بنا إياها ،

---

(١) يقصد بذلك صاحب الموصل ، راجع الروضتين ٢/٢٣ .

(٢) من هنا حتى كلمة « الاسلام » هنا ص ٦٤ س ١٣ غير وارد في صورتها بمفرج الكروب ٢/١١١ .

(٣) «خامر» في الروضتين ، وقد صححه على هذه الصورة مفرج الكروب ٢/١١١ ، وقد وردت في نسخة من كتاب أوزده أبو شامة ، شرحه ٢/٢٣ — ٢٤ على الصورة التالية : « والخادم — والحمد لله — يعدد سوابقه في الاسلام والدولة العباسية لا يعدها أولية في مسلم لأنه والى ثم وارى ، ولا طفر لبك لأنه بصر ثم حجر » .

(٤) أي على أبي مسلم الخراساني وطغرلبك .

وتطهير المنابر من رجس الأدعياء[١] ، وإطلاع أنوار السمات كاشفة ظلم تلك الأسماء، وإنارة صباح الهدى بعد امتداد رواق الضلالة المدلهمة الظلماء ، ولم نفعل ما فعلناه لأجل الدنيا ، فلا معنى للاعتداد بما الجزاء عنه بالحسنى متوقع فى العقبى ، غير أن التحدث (٢٧ب) بنعمة الله واجب ، والتبجح بالخدمة الشريفة والافتخار بالتوفيق لها على السجية غالب . ولاغنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده ، ولا يتجاوز حقه ، فلا ولاية له من خليفة يقترن به بهاء المضاء ، ولا وراثة له فى أرض الله ، فإن الأرض[٢] لله يورثها من يشاء ، فإن أطاع وأناب ، ورجع عن الخطأ وعاود الصواب ، وترك الحق لأهله ، وأخذ الوفاء فى سلوك سبله وإلا فما قصدنا إلا أن نقاتله وهو لأمر الخلافة المعظمة مخالف ونحن طائعون ، والمشار إليه متصامم ونحن سامعون ، وكفى بالمحق نصرة أنه على الرشد الكامل ، وبالمبطل خذلاناً أنه طالب للباطل » .

فصل منه :

« هذا ومابنا — بحمد الله — قصور عن أن نصده عن قصده ، ونرديه ثوب العجز برده ؛ ونكيل له بصاعه ، ونعثره فى عثير إسراعه ، ونحسم داءه وإن أعضل مرضاً ، ونرميه بسهام من عند الله تعالى لا تقبل غيره غرضاً ، ولا شك أن التحارب يحيره ، والإدبار يصحبه فيما يدبره ، وقد طالع الديوان العزيز بطبه مستشفياً ، ولشرح قصته مستوفياً ، ولعذره فى جميع الأحوال مبلياً ، ولا غناء عن نظره السامى ليكون للمراد متولياً ، ولراية الحق معليا ، لازال لذخائر الحمد مقتنياً ، ولقواعد المجد متبنياً ، ورأيه أسمى إن شاء الله تعالى » .

---

(١) يقصد بذلك ازالة الخلافة الفاطمية .

(٢) اشارة الى قوله تعالى فى القرآن الكريم « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » سورة الأعراف ٧ : ١٢٨ .

ذكر مسير سيف الاسلام ظهر الدين طغتكين (١) الى اليمن

وذلك لما كان يجرى بين الأمير [عز الدين] عثمان بن الزنجارى(٢) والى عدن وبين الأمير حطان [بن منقذ الكنانى] والى زبيد من الفتن والأمور التى تكون معها عاقبتها(٣) إلى فساد الدول (١٢٨) ، فأحضر السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين ، وقرر معه أيمضى إلى اليمن وينظر فى أمور بلادها ويتولاها ، ويولى ويعزل ويستبدل ، فسار إلى اليمن ، فحين علم به حطان خاف منه وأوى إلى بعض الحصون فتحصن منه واستكن منه ، ومازال يمنيه ويرغبه فى الولاية بين يديه ، وحطان يسأل الإذن بالمضى إلى الشام فأذن له ، فجمع حطان جميع أمواله وذخائره من ذهب وفضة وجواهر ويواقيت وآلات وعدد وخيول عراب ، وأمر غلمانه أن تأتى بالجمال ، فحملها جميع الأموال وظن أنه ينجو بذلك ، وركب ليسير بماله إلى الشام فأمر برده إليه ليودعه ، فلما دخل إليه اعتقله وسير وراء ماله وخزانته وأثقاله من ردها إليه فاستولى عليها ، ثم أنفذه إلى بعض المعاقل فحبسه ثم قتله(٤) .

وفيما ذكر للسلطان من خبر ماله وذهبه ما يغنى عن تفاصيل ، جملته : نيف وسبعون غلافا من غلف الزرد وكانت مملوءة بالذهب الأحمر ، وقوم المأخوذ بألف ألف دينار .

---

(١) كان وفاته سنة ٥٩٣ هـ ، راجع ذيل الروضتين ، ص ١١ .

(٢) غير منقطة فى الأصل ، وفى نسخة ابن الأثير : الكامل ١٩٢/١١ « الزنجبيلى » .

(٣) تفسير ذلك عند ابن خلدون : تاريخ ٢٩٦/٥ أنه لما وقعت الفتنة بين حطان وعثمان خشى صلاح الدين أن تخرج اليمن عن طاعته.

(٤) يختلف هذا الخبر اختلافا كبيرا عما ورد فى ابن الأثير : الكامل ١٩٢/١١ اذ المذكور فيه أن صلاح الدين انفذ الى اليمن جماعة من أمرائه ، منهم صارم الدين قتلغ بيه ، ولم يرد لطغتيكن اشارة ، كما أن ابن الأثير يشير الى أن امارة زبيد عادت الى حطان بعد موت قتلغ بيه .

وأما الأمير عثمان الزنجارى فإنه لما سمع بسيف الإسلام [ظهير الدين طغتكين] تجهز إلى الشام وفارق اليمن .

* * *

ذكر البطسة الفرنجية الواقعة الى بحر دمياط والظفر بها ، وذلك بعد غدر من الفرنج فى أواخر السنة المذكورة .

كان السلطان قد عقد هدنة مع الفرنج فنكثوا قبل انقضائها تعرضا للفتنة ، وجرى عند ذلك من الاتفاقات الحسنة أن بطسة عظيمة من المراكب الفرنجية مقفلة من بلد لهم يقال له « بوليه » تحتوى على ألفين وخمس مائة نفس من رجالهم (٢٨ب) وأبطالهم وأتباعهم وهم على قصد زيارة القدس ، فألقتهم الريح إلى ثغر دمياط ، فغرق منهم شطرهم وسلم الباقون ، فأسروا جميعا ، فحصل فى الأسر منهم ألف وستمائة وسبعون نفسا[1] ، فذل لتلك الواقعة جانب الكفر ، واتفق ذلك أمام اهتمام السلطان بالمسير إلى الشام لما جرى فيه من الاختلال بموت صاحب حلب وغدر صاحب الموصل ، وتجهز بعساكره المنصورة لقصده ، ووافق ذلك دخول سنة ثمان وسبعين [وخمسمائة] وسنذكر الحادثة فيها إن شاء الله تعالى .

* * *

واقعة (٢) شرف الدين قراقوش المظفرى فى هذه السنة

ولما دخلت سنة سبع وسبعين رحل شرف الدين عن جهة مطماطة ومضى

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ١٢/٣١٠ ، وقد ذكر أبوشامة فى الروضتين ٢/٢٧ أن عددهم كان يبلغ ١٦٧٦ .

(٢) اكتفى ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٣٠ بالاشارة الى حركة قراقوش المظفرى بافريقية فذكرها فى سطر ونصف فقط وكذلك أبو شامة : الروضتين ٢/٢٧ س ٥ ـ ٧ ، ولكن ابن الاثير لم يشر مطلقا لهذه الحملة .

إلى إفريقية ونزل على اربس[1] وهى مدينة عظيمة وقد اجتمع معه جماعة من العرب من مرداس ومن الرجالة، وأقام عليها أياما وعمل عليها منجنيقا فلم يقدر عليها ، ورحل عنها إلى سوبيريه ولم ينزل عليها بل أغار على بلادها، وترددت إغاراته على اربس وبلادها وماحولها أشهرا، وجعل يرحل من موضع إلى موضع لأنها كانت أيام الربيع إلى أن انقضى الربيع وجاء الصيف، فرحل وأوغل فى بلاد إفريقية وانتهب منها ماقدر عليه، وغنم أصحابه الغنيمة العظيمة ، وعاد إلى قفصة بمكاتبة كانت من بعض شيوخها إليه ، وواعده ليلة بعينها لأن الموحدين كانوا قد أخذوها من بنى الربذ فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وأهلها كثير وفيها من أصحاب ابن عبد المؤمن جماعة ، فوصل إليها فى الليلة التى واعده (١٢٩) الشيخ على شرفتها فما تهيأ له ذلك بل عمل السلاليم التى أعدها للشرفة ، وطلع أصحابه فشعر بهم الموحدون وجاءوا إليهم فأنزلوهم أشد إنزال، وكان الشيخ على السور فأخذه معه وقبض عليه وقيده وترك فى رقبته[2] غلا ورحل عن قفصة ، فلما أبعد عنها أطلقه وقال له : « عملت بك ماعملت خشية عليك حتى لا يقال عنك إنك عاملت على المدينة فتقتل ، وأنا بعد — إن شاء الله — أرجوك فى وقت غير هذا » ، وعاهده ومضى .

وطالت مدة إقامة شرف الدين يتردد بافريقية ، وانقطع خبره الصحيح عن ناصر الدين ابراهيم ، ووصلته أخبار سارة[3] بأن قراقوش هلك فسارع فى النزول على قلعة أم العز وحاصرها ، وكانت خالية من الرجال وإنما كان فيها النسوان ومعهم الحسام البقش — أحد أصحاب شرف الدين وثقاته — ومعه

---

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) فى الاصل « قبضته » ثم كتب الناسخ فوقها دون أن يشطبها « رقبته » .

(٣) فى الاصل « شاده » وواقع الحال يقتضى ما أثبتناه بالمتن .

نفر قليل ، فلم يزل حتى أخذ القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من ذخائر شرف الدين وأمواله ، وأخرج النسوان منها ، ووكل عليهن وعلى الحسام البقش، وتركهم فى موضع .

واتفق أن شرف الدين عند رحيله عن أم لامة توجه إلى بلد القيروان ونزل على موضع يقال له « السكة » فى أواخر سنة سبع ، ونصب عليها منجنيقا وقاتله ، وكان معه من العرب سليم الشريد فى قريب من ألف فارس ، وقد وصله حميد بن جارية فى هذه السنة فى مائتى فارس، وترك قبيلته لما استضعفوه واستهانوه، فلم يشعروا فى أول النهار إلا والحرب قد قامت بين حميد والشريد ، وكان الشريد أكثر من حميد فوقعت حية قراقوش لحميد فنفذ عسكرا[1] عوناً لحميد ، فلما شعرت مشايخ الشريد بذلك ارتحلت عنه وتركته وحميد ، فما بعدوا إلا وعسكر الموحدين فيهم أحد (٢٩ ب) أولاد عبد المؤمن يقال له أبو موسى فى نحو من عشرة ألف فارس وعشرة ألف راجل ، وما عند شرف الدين قراقوش خبر منهم حتى أطل العسكر من ناحية الجبل ونزل الوطاء فندم على مفارقة الشريد ، ونفذ يستصرخهم فعادوا إليه خيالة من غير أهل وتركوا أهلهم (و) مضوا لحالهم ووصلوا إليه وقالوا « ياشرف الدين ياسلطان ، نحن لك على ما تحب ، إن طردتنا نزحنا وإن استدنيتنا[2] حضرنا » ، وشال العسكر أثقاله وبقى المنجنيق : ولز وصول العسكر والناس يقولون : « ياخوند أطلنا العسكر » وهو يقول : « والله ماأروح إلا بالمنجنيق » ولم يزل حتى رفعه على الجمال ، وضرب لمقدم عسكر الموحدين خيمة واحدة ، ووقف العسكر بأسره ، فسئل بعد ذلك عن الخيمة ما كان سبب ضربها فقالوا : « نزل السيد يلبس فيها لامة حربه »

---

(١) بعدها فى الأصل « الى الشريد » .

(٢) فى الأصل « استند بتنا » .

ونفذ شرف الدين الشهاب ابن المقدم وجعله مقدما على الشالبشية ، وأراد أن يبصر كيف حرب الموحدين ، وطمعوا فيهم ، فرموا منهم جماعة وأتوا بخيولهم إلى شرف الدين ، فزاد الطمع ، ونفذ العرب الشريد وذباب وأصحاب حميد ، فصار الجميع قريبا من ألف وخمس مائة فارس ، ووقع الطراد بينهم وطمعوا فى الموحدين ونفذوا إلى شرف الدين أن يقدم إليهم .

وكان شرف الدين قد نفذ الثقل وأوصله إلى رجائل العرب ، وعاد ومعه ثلاثمائة فارس ، فأطل على القتال وحمل حملة واحدة بمن معه ومن كان تقدمه ، فانكسر الموحدون وراحت عليهم الكسرة ولازال الطراد فيهم والأخذ إلى مدينة القيروان ، فدخلها السيد أبو موسى مقدم العسكر ، وعاد شرف الدين ظافراً وغنم عسكره وأسروا جماعة من المقدمين ، فكان ممن أسر ابن مثنى صاحب ديوان افريقية والقاضى ابن (١٣٠) ماسكة قاضى إفريقية وجماعة كبيرة ، منهم من فدى نفسه بخمسة ألف دينار وستة ألف دينار إلى ألف ، وأما ابن المثنى فإنه كان قد أخذه بعض العرب يسمى نعيم ، فنفذ إليه شرف الدين أخذه وأعطاه ألفى دينار وتركه فى خيمة ، فترددت الرسائل بينهما فى الفداء ، فقطع على نفسه خمسة وستين ألف دينار عيناً وبأربعين ألف متاعاً من عمل سوسة والمهدية ، ومابات شرف الدين فى تلك الليلة التى كانت الكسرة فى يومها حتى أخذ « السكة » التى كان يحاصرها لاستسلام أهلها ، وقطع عليه عشرين ألف دينار فرحل عنها وقطع القيروان ، ونزل بينها وبين المهدية على بلد يسمى لودر ، فلم يزل عليها إلى أن استوفى ما كان قطعه على ابن مثنى وأطلقه من هناك .

ومن أعجب الأشياء أن بعض الأتراك أخذ قماشاً فى الكسرة فكان لكاتب السيد أبى موسى ، فوجد فيها أوراقاً وكتباً من الأطراف ، ووجد فيه كتابا وقد وصل من قابس إلى السيد يذكر فيه أن إبراهيم نزل على أم العز وأخذها وأنزل نساء قراقوش منها لما بعد عهده بخبره ، فدخل على شرف

الدين من ذلك أمر عظيم، وما كان بد له من العود إلى بلاد طرابلس لأجل ما سمعه عن إبراهيم ، فعاد مظفراً قد كسر الموحدين وغنم هو وأصحابه الغنيمة العظيمة ، واتفق فى طريقه بزغب الذين كانوا يكونون مع ابراهيم، فتراسل وإياهم وحضر إليه أمراؤهم ، وقد تقدمت أسماؤهم فتحالف معهم ، وكان حميد فارقه عندما نزل بالجهة وسار إلى قبيلته وكانوا بنواحى هراره ، وكانت رعب على موضع يقال له رديف ، (وهو) موضع مليح من عمل قابس واقع فيمابينها وبين جبلى مطماطه وقلعة حسن ، فلما اتفق ما بين شرف الدين وبين زغب فرج عنهم (٣٠ب) لأن ذباب عندها عذر عظيم ومكر وخداع ، وزغب عندها وفاء ومحبة فى الأتراك ، لأن ذبابا أعداؤهم وهم خلق كثير يكون فى خمسة ألف فارس، وزغب ماتزيد على ألف ومائتى فارس ، إلا أن زغب عندهم شجاعة وفروسية وإن كان فى ذباب كذلك إلا أن زغب إذا كانت مع الغز لا يقابلها ، أحد ، وسار شرف الدين وهم معه إلى بلاد طرابلس فوصلها ، وسمع به إبراهيم وتحقق رجوعه فقامت قيامته. ولم يكن شرف الدين عاجزا ولا متوانيا فى أمره ، إذ سارع إلى الجبل : جبل نفوسه وطلع إلى إبراهيم من عقبة يقال لها مكردمين ، وسار إلى جادوا فما استطاع إبراهيم أن يقاتله ، فترك البلاد ونزل إلى قلعته «تنزلت» وتحصن بها ، ونزل عليه شرف الدين وهى قلعة لا تقاتل لأنها نائية فى وسط وادٍ عظيم لا يقدر أحد على الطلوع إليها ولا القتال ، إلا أن بعض الجبال التى حولها تشرف عليها ، فجاء شرف الدين إلى ذلك الجبل ونصب عليه منجنيقاً ورمى به فما وصل إليها ، فطول سهمه ورمى به فلم يصل إليها بل زاد على الأول ، فتحيّل فى سهم طويل وضرب به فوقع حجره فى وسط القلعة، فما قدر إبراهيم أن يقيم وطلب الأمان ، وخرج حاجبه جمال الدين وطلب أماناً لإبراهيم ، فشرط عليه أن يتوجه إلى طرابلس ينزل فيها فى مركب إلى الديار المصرية ، فتوقف شرف الدين عليه فى الأمان وقال : « ما آخذه إلا أسيراً ، هذا الغادر الماكر » ، فلم يزل الأتراك يسألون فيه إلى أن أعطاه

يده وحلف له برأس الملك المظفر أنه لا يضره ، فخرج فى ليلته ولم يجتمع به ، وسيره مع ستين فارساً إلى مدينة طرابلس ، فوصلها ودخلها .

وكان صاحبها ابن مطروح عبد المجيد[1] مطيعاً لابن عبد المؤمن (١٣١) صاحب المغرب ، فلما اجتمع به إبراهيم حسّن له التوجه إلى ابن عبد المؤمن وسفّره فى مركب إلى تونس وكان فيها والٍ يقال له عبد الواحد فتلقاه وملقّى حسناً وأعطاه مالا كثيراً وجهزه وسيّره إلى مراكش ، وكان صاحبها ابن عبد المؤمن يوسف إذ ذاك ، وملك قراقوش ما كان بيد إبراهيم وأضافه إلى ما كان فى يده ، ولما أحس حميد بن جارية مقدّم ذباب بأن قراقوش قد حالف زغب قامت قيامته وأخذ فى عداوته ، وصارت ذباب تقتل من لقيت من الأجناد وتغار على جمالهم فى مراعيها وتأخذ قوافلهم ، فقضى ذلك أن شرف الدين أظهر عداوة حميد ونفذ إليه : « إن أردت صداقتى فتردّ ما أخذته قبيلتك » ، فقال حميد : « لا قدرة لى على ذلك » ، فقال له شرف الدين : « انعزل عنهم بمن أطاعك » فأبى .

وعلمت ذباب بإظهار العداوة لشرف الدين فصارت كلها طوعاً له ، وكانت ذباب إذا رأت حميداً قد عادى ملكا أطاعته ، وإذا صادق ملكا بغضته .

وعلمت الشريد بعداوة شرف الدين وذباب فانحازت إليه وحالفته مع زغب وكذلك عوف حالفته .

وكانت سليم كلها — التى بطرابلس — إذا جاء لذباب عدو انحازت إليه ، لأن ذباب أبداً كثيرة الأذى لسليم لكثرتها ، وسأذكر واقعته فى موضعها من سنة ثمان [وسبعين وخمسمائة] إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) فى الأصل « عبد المحيط » والتصويب من أبى شامة : الروضتين ٢/٣٨ .

سنة ثمان وسبعين وخمس مائة

فيها برز الأمر الشريف بأن لا يستخدم فى الديوان كتاب النصارى ولا أحد من أهل الذمة وكانوا يُستخدمون فى الديوان وفى المخزن لاستيفاء الأموال ورفع الحساب من قبل ، فلما ولى الإمام الناصر لدين الله — صلوات الله عليه — رأى أن فى ذلك (٣١ ب) إذلالاً للمسلمين ، فوقّع إلى أستاذ الدار أمين الصاحب يقول له : « إن الله تعالى نفى أن يكون للكافر على المسلم سبيل ، وفى استخدام أهل الكتاب إهانة للمسلمين ، فلا يستخدم أحد فى شىء من الأعمال ورتّب عوضهم من يصلح من المسلمين » ، فكتب إليه أستاذ الدار : « إن هذه الحال تحتاج إلى التأمل فى حال من يُرتّب ، وفى الصبر على هؤلاء للكتاب إلى أن يؤخذ ماعندهم من أصول الأموال بحيث لا يعلمون ؛ ولعلهم إن علموا أسقطوا كثيراً من حقوق الديوان » ، فوقّع إليه [الناصر لدين الله] : « ما إلى هذا سبيل ولو ذهب أصل بيت المال ولا يبقى أحد من الكفار فى شىء من الأعمال » ، فأخرج جميع من كان بخدمة الديوان من أهل الكتاب كأولاد النظام وغيرهم من النصارى من أولاد زطينا وابن الأشقر كاتب ديوان العرض ، وشفع ابن البخارى نائب الوزارة بابن الأشقر كاتب ديوان العرض ليبقى على حالته ، وذكر أنه ثقة عفيف ، فوقع الخليفة : « هذا ابن الأشقر مات ما الذى يصنع بعده فى ديوان العرض » ، فتقدم بإخراجه من الديوان بعد أن عرض[1] عليه الإسلام فأبى ، وكان له ولد فدخل إلى ابن البخارى

---

(١) دأبت نسخة هذه المخطوطة على كتابة « أعرض » بمعنى « عرض » وستصحح فيما يلى دون الاشارة الى خطأ الناسخ .

وهو جالس فى الديوان فى ملأ من الناس وقال : « يا مولانا ، أنا رجل قد رغبت فى دين الإسلام لأجل خدمة أمير المؤمنين ، وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن كل دين غير الإسلام باطل » ؛ فأشار إليه ابن البخارى بالجلوس فجلس ، ثم كتب إلى الخليفة بصورة الحال ، فوقع [الخليفة] إليه :

« إنما منعنا من استخدام الكفار لأجل كفرهم، فمن أسلم يعاد إلى خدمته؛ وهذا يخلع عليه ويستخدم فى ديوان العرض عوضاً عن أبيه ، ويقال لكل من صرفنا من خدمتنا إن أحب الدخول فى (١٣٢) الإسلام فيعاد إلى خدمته ويُشرّف ، ومن لم يفعل لا يمكن من خدمة تتعلق بنا ، والسلام » . وانحسمت المادة فى ذلك ، وكانت هذه معدودة من مكارم أخلاق أمير المؤمنين الناصر لدين الله لأنه لم يسبق إليها ولم يعتمدها سواه .

* * *

وفيها تقدم الأمر بالقبض على كمال الدين أبى مفضل بن الوزير الفرج بن رئيس الرؤساء ، وحمل إلى دار الخفاش فى التاج العتيق ، وطلبت منه أموال جمة فلم يعترف بشىء ، وأخذ ما كان فى داره من المال فكان مقداره عشرين ألف دينار ؛ وأخذت من داره خزانة من الكتب النفيسة فبيعت بمبالغ ، وتولى بيعها أبو السعادات الوكيل ابن الناقد ، وتكررت المطالبة لابن رئيس الرؤساء بالمال وهو يدافع عن ذلك، وكان أستاذ الدار ابن الصاحب يزرى عليه ويعادى بيته قديما وحديثا ، وكان يخاف منه لأنه كان رجلاً جباراً عارفاً بأحوال الملك وتدبيره ، وكان قد نشأ فى دار الخلافة حاكما ، وكان أبوه الوزير مع شيخوخته يتدبر برأيه مع صغر سنه، فتقدم أستاذ الدار إلى عبد الملك النائب — وكان قد عرف بالظلم والقساوة لأنه منذ نشأ فى

باب النوبى يخدم بين يدى الحجاب — أن يتولى أمره وعذابه فتركه فى مطمورة ، وكان يضربه من رأسها بطوابيق القرميد حتى هلك ، فعرف الخليفة بموته فقيل له إنه كان به ذرب وكثر عليه فمات ، فتقدم بأن يرمى فى دجلة ليلا ، فرمى ولم يعلم به إلى مدة .

وكان موته أعظم الأمور على أهل بيته لأنه كان يخاف منه ، وتطرق الأذى إلى بيت رئيس الرؤساء ودخل[1] عليهم الأذى ، وتبرجت نساؤهم بعد الخدر . وتزوجت إحدى بنات كمال الدين برجل يعرف بابن ملك،كان جنديا[2] وتصوف ، بعدأن كانت مسماه على ابن قطب الدين قايماز (٣٢ب) وفسخ أبوها النكاح وقال : « ليس هذا بكفء » ثم تناهت الحال بهذا البيت وأهله إلى أن صاروا من أدون الناس حالا ؛ وكان أهل بغداد إذا شاهدوا واحداً من نسائهم أو صبيانهم يقولون . « سبحان مزيل النعم » ، ويذكرون قدم هذا البيت .

وكان أستاذ الدار يتتبع جميع من كان من أنساب هذا البيت وأقاربه والمتعلقين به ماعدا عز الدين أبا منصور بن رئيس الرؤساء ، فإنه كان يقربه ويحضره عنده ويكلفه ذكر أهله ، ويوقع فى نفس الخليفة أنهم يبغضونه من زمن .

وفيها تقدم[3] أمير المؤمنين الناصر لدين الله — صلى الله عليه — بختان ولديه : ولىّ العهد أبى نصر محمد والأمير أبى جعفر على أعزّ الله أنصارهما ، فأمر بحضور أرباب الدولة وجماعة من الأمراء الخواص ومن

---

(١) فى الأصل « ودخلت » .

(٢) فى الأصل « جندى » .

(٣) أمامها فى الهامش عبارة « ختان ولدى الخليفة الناصر لدين الله » .

جرت عادته حضور دار الخلافة، وأمر بحضور المغنين والمطربين وأصحاب الملاهى ، وتقدم بعمل خوان غرم عليه مال جزيل لا يحصره عد ولا وصف لكثرته وما صنع عليه ، وبقى الناس على ماهم عليه من الفرح والسرور والطرب سبعة أيام بلياليهن ، فلما كان فى اليوم السابع أمر بالخلع والتشريفات، فأول من خلع عليه مجد الدين أبو الفضل ابن الصاحب ، خلع عليه جبة أطلس بقطى ومقيار مسمط بذهب عراقى وأعطى سيفاً مذهباً ، واعتقد الناس أنها خلعة الوزارة، وجعل الناس يترقبون ركوبه فركب ودخل إلى الدار العزيزة على جارى عادته . ثم خلع على جماعة الأمراء وأرباب الدولة ، وحضر للتهنئة جماعة من الشعراء والفضلاء ومنهم الأجل أمين الدولة جمال الكتاب أبو الفتح محمد بن عبد الله الكاتب سبط التعاويذى ، فقال يمدحه ويهنئه بختان ولديه : أبى نصر وأبى جعفر :

(١٣٣) ختان جرى باليمن والنجح طائره
موارده محمـــــودة ومصادره
قضت بتباشير السرور صدوره
ونيل المنى أعجازه وأواخره
بطالع سعد لاتغيب نجومه
وزائن حظ لاتغيب بشائره
فيالك من يوم تكامل حسنه
فرقّت حواشيه وراقت مناظره
حوى شرفاً يبقى على الدهر ذكره
إذا فنيت أدواره وأعاصره
يتيه على الأيام فضلا وسؤدداً
فلو فاخرته أخمتها مفاخره

أفيض على الدنيا به ثوب بهجة
فأمست عليها ضافيات حبايره
ففى كل قلب غبطة تستفزه
ونشوة شكر من سرور تخامره
لقد سفك الإسلام فيه وحكمه
دماً جل أن يلقى ثرى الأرض قاطره
ولولا أمير المؤمنين وإنه
بإيثاره فى طاعة الله هادره
لخرّت على الترب السماء وزلزت
رواسيه إجلالا وغيضت زواخره
أيقضى على وتر سليل خلافه
كتائبه[1] من حوله وعساكره
وتحنى عليه فى يد العلج مدية
وخرصاته من دونها وبواتره ؟
وما فارقت بيض السيوف غموده
ولاحملت أسد العرين صوامره
ولكنه الإسلام ينقاد طائعاً
له كل جبار تطاع أوامره
ليهن أبا العباس لله نعمة
تراوحه موصولة وتباكره
سيبلو وشيكا منهما ليث غابة
تمزق أشلاء الأعادى أظافره

---

(١) يمكن قراءتها أيضا « كنانته » لعدم التنقيط .

(٣٣ب) وغيث سماح يملؤ الأرض ودقه
وتروى صدى الهيم الظماء مواطره
همو أمراء المؤمنين عليهمو
إذا ريع سرب الملك تثنى خناصره
وهم عدد الإسلام إن عنّ حادث
كفوه ، وهم أعضاؤه وذخائره
بهاليل من آل النبي تأشبت
عناصرهم فى خندف وعناصره
نجارهمو يوم الفخار نجاره
وأحسابهم أحسابه ومآثره
يطيعهم الدهر المطاع قضاؤه
وترهبهم أحداثه ودوائره
لقد سار فينا سيرة عمرية الـ
ـسياسة ، فالتأييد فيها يسايره
إمامٌ لتقوى الله والعدل كله
وللبذل والمعروف فى الناس سايره
كريم المحيا والشمائل يلتقى
بأبوابه بادى الثناء وحاضره
أضاءت لنا بشراً أمرّة وجهه
وشفت عن الخلق الكريم سرائره
وأوسع جانى الذنب عفواً وإن غدت
تضيق عليه فى السماح معاذره
هو الناصر الدين المنيف بسيفه
وآرائه ، والله بالغيب ناصره

فخرت على أبناء دهرى بمدحه
وعظّم قدرى أننى اليوم شاعره
أصوغ له حلى المديح ولم تكن
لتحسن إلا فى علاه جواهره
فلا زالت الأقدار [تجرى][1] بأمره
ويدفع عن حوبائه مايحاذره
ولا برحت فى الخافقين أواهلا
بدعونه أعـــواده ومنابره

* * *

وفيها تقدم الخليفة إلى مجاهد الدين[2] خالص الخادم أن ينظر فى نهر ملك[3] (١٣٤ ا) ويرتب فيه من شاء من النواب والعمال والكتاب ، وجميع مايحصل من معاملات نهر الملك يعرض على يده ومن جانبه ، وفرض له عن نظره برسم الشحنكية مالاً ، وتقدم له بسيف ركاب أسوةً بأرباب الدولة ، وسأل أن يركب بسيوف مشهورة فى ركابه إذا ركب فى البلد ، فأذن له فى ذلك .

وسبب الإنعام فى حقه خدمته لأمير المؤمنين فى زمن إمارته ، وكان قد ربّاه ، وكان بحر درة أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — تحبه وتحترمه وتشتهى أن تراه بهذه الحال لسابق خدمته لها ، وطلب الإذن النبوىّ فى استخدام وزير لتدبير أمره فأذن له فى ذلك ، فاستوزر رجلاً يعرف

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم الوزن والمعنى .
(٢) هو مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصرى (+ ٥٨٤) .
(٣) نهر ملك يحمل من الفرات الى دجلة وأوله عند قرية الفلوجة ومصبه فى دجله ، وكان يعرف قديما باسم ملخا malcha ، راجع لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٩٣ — ٩٤ .

بالأصيل ابن الحوافى أعجمياً معروفاً بخدمة الأمراء ، وكان المذكور وزيراً الأمير إيلاجك ، وكان ولده عارض الجيش، فخلع عليه خالص جبة أطلس ومقياراً بعراقى ، واستأذن له فى الدخول إلى الدار العزيزة وأن يكون له موضع بباب الحجرة الشريفة يجلس فيه لقضاء مهماته ، فأذن له فى ذلك ، فكان أستاذ الدار ابن الصاحب يتأذّى من هذه الأحوال ، وكان هذا الخادم قد كبر أمره فخاف منه على منصبه وأن تفضى الحال إلى أن يرتب ابن الأصيل أستاذ الدار ، فسار أستاذ الدار يسارع فى توقف مهامه وتبطيل كثير من أوامره ، وحسّن للخليفة ذلك ، فبرز الأمر أن يراجع أستاذ الدار فى جميع أموره ، فتأكدت العداوة بين أستاذ الدار ابن الصاحب وبين خالص [الخادم] ، وآل الأمر فى امتناع الناس من الدخول على خالص ، وكان من أراد الدخول إليه لحاجة لم يقدم على ذلك إلا بإذن من أستاذ الدار .

وكان جماعة من الناس من أهل (٣٤ ب) بغداد ما لهم شغل إلا نقل الحديث من مجلس خالص إلى أستاذ الدار ، وكان خالص قد اشترى جماعة من الجوارى المطربات نحواً من عشرين جارية وكان يبالغ بأثمانهن ، وكانت الجارية منهن تساوى ألف دينار ، وكان يحب السماع ولا يشرب [1] ، وكان يأمر بإحضار جماعة من الأمراء والمماليك ، فنفذ أستاذ الدار يمنعه من ذلك وقال : « مثل هذه الحال لا تحتمل أن تكون فى الدار العزيزة » ، فتألم خالص من ذلك ورفع أمره إلى الخليفة ، فاستصوب [الخليفة] رأى أستاذ الدار وقال : « نعم ما فعل ، وإذا أراد هذه الحال يعمر على شاطىء دجلة داراً ولا يفعل ذلك بدار « الخلافة » ، ومُنع [خالص] من ذلك الوقت وعمّر داراً على شاطىء الدجلة .

* * *

(١) ذكر ابو المحاسن عنه فى النجوم الزاهرة ٦/١٠٧ انه « كان سليم الباطن دينا ».

وفيها استخدم أستاذ الدار أبا المظفر هبة الله ابن يونس وجعله نائبه وحكّمه، وصارت الأمور تجرى معظمها على يديه ، وكان أبو المذكور — يونس — وكيلا بباب الحجرة الشريفة من جانب أستاذ الدار ؛ وكان رجلا ديّنا ، وكان مخمول الذكر فلم يزل على ذلك حتى حصّل مالا وثروة: حدوداً من عشرين ألف دينار ، وكان من أمر ولده أبى المظفر ماسنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها أعطى سعود الخادم شحنكية دجيل وجانبيه من تكريت إلى بغداد، وكان الناظر بدجيل زعيم الدين بن الجلال ، وكان قيصر بن بلك بين يدى سعود محكماً فى ولايته لا يعمل أمراً ولا شيئاً إلا برأيه ، وكبر أمر سعود وتقدم عند الخليفة وكان لا يزال يركب مع الخليفة إذا ركب ، وخوطب بالإمارة ، وأعطى إقطاعات كبيرة فى بلاد واسط مع شحنكية دجيل، فحصل من ذلك أموالا جزيلة، لأن دجيلا[1] بلد كبير الدخل وليس فى بلاد العراق أكثر دخلا منه ولا (٣٥ ا) أكثر من ثماره، ولا أنزه من ضياعه، ولا أرق من هواه ، ولا تزال المياه تطّرد فى أنهاره ، وهو الموصوف بكثرة بلاده ، وحتى ولو خرب دجيل لزال من العراق معظم مغانيه .

وفيها رتب عماد الدين صندل [الخادم] ناظراً فى نهر عيسى[2] ورسم له النظر فى شحنكيته ، وتقدم إليه بالعبور إلى الجانب الغربى ، وكانت هذه الحال من جانب أستاذ الدار لأن صندلا[3] كان فى زمن المستضىء أستاذ

---

(١) أمامها فى الاصل عبارة « دجيل » وقد ذكر مراصد الاطلاع ٥١٦/٢ « انه اسم لنهر مخرجه من أعلى بغداد ويسقى كورة واسعة وبلادا كثيرة ؛ ثم تصب فضلته فى دجلة » .

(٢) راجع مناقب بغداد لابن الجوزى ، ص ١٨ .

(٣) كان عزله عن الاستادارية سنة ٥٧١هـ وذلك لامر لحق المستضىء عنه .

الدار ، لأن الخليفة كان قد التفت إليه وكبر[1] عنده لأنه كان رجلا عاقلا تقيا ، وكان الناس يعتقدون فيه ويعظمونه ، وكان ذا معروف حسن ، فلم يزل أستاذ الدار بن الصاحب حتى حسّن فى نفس الخليفة الإنعام فى حقه وحسن له أن رتبه فى نهر عيسى ناظر شحنة ؛ ونفذ له بغلة شهباء وحصاناً أحمر وجبة وعمامة وسيفاً ، وخرج إلى نهر عيسى، ورتب عليه مشرفاً رجلا يعرف بزين الدين أحمد بن جعفر الذى كان أبا صاحب ديوان إمام المستنجد بالله رضوان الله عليه .

* * *

وفيها مات الشرابى المعروف بالتحفة، ورتب موضعه نجم الدولة نجاح، وشرّف تشريفاً جميلا وأعطى إقطاعاً كبيراً، وتقدم إليه أن يركب موضعاً جرت به عادة أمثاله من الشراب دارية ، وكثر إنعام الخليفة عليه والالتفات إليه ، وظهر نصحه، وهو إلى الآن على عادته .

وفيها رتب أبو الحسن بن الكرخى حاجباً فى الديوان من حجاب المناطق ، وكان الخليفة يقربه ويحب محاضرته ؛ ورتب أبو الشيخ أبو جعفر الكرخى حاجب المنبر الشريف بجامع القصر وخلع عليه ، وعادة حاجب المنبر بجامع القصر أن يكون متأهباً ليوم الجمعة[2] بإزاء المنبر ، يلبس ثياب السواد ويشد وسطه بمنطقة ، متقلدا بسيف حليته فضة ، ويكون بين يدى (٣٥ب) المنبر ، فكل من أتى متظلماً يأخذ منه قصته ويستعلم حاله، ويكون بين يديه جماعة المستخدمين المقيمين بباب العامة ينفذون أوامره ويستخدمهم كيف [شاء] فى هذا اليوم فحسب، فإذا تكملت الرقاع معه أخذها فى منديله، فإذا قضيت الصلاة خرج من الجامع وجاء إلى المقصورة التى جرت عادة

---

(١) فى الاصل « كثر » .

(٢) امامها فى الاصل « عادة حيا .... ببغداد » .

الوزير والنائب أن يصلى بها ، فإذا خرج الوزير مشى فى خدمته وسلّم الرقاع إليه وشرح له أحوال أربابها مفصلة ، فما يحتاج فيه إلى المراجعة للعرض الأشرف راجع فيه ، ومالا يحتاج تقدم فيه الوزير أو النائب .

* * *

وكان فى هذه السنة ابن النجارى جلال الدين النائب، فكثر عنده ابن السكرخى يخلو به فكان ابن السكرخى ، يشرح له ما كان يجرى له مع الخليفة فى خلوته ، فاستأذن الخليفة أن يرتب والد المذكور — الذى هو حاجب المنبر — على المظالم ، على أن من كان له ظلامة أو حاجة أو قصة وأراد عرضها يكون حديثه مع هذا الشيخ أبى جعفر ، وكبر بذلك ، وحصل جملة كبيرة ، وكان هذا الشيخ أبو جعفر من جملة حواشى الوزير ابن رئيس الرؤساء وممّن ربىَ تحت ظله ونعمته .

كان حاجبه حيث كان وزيراً .

وفيها[1] ورد القاضى ضياء الدين القاسم بن الشهرزورى إلى مدينة السلام بغداد رسولا من جانب الملك الناصر صلاح الدين ، وأخرج إليه بهاء الدين أبو الفتح بن الدارنج — وكان حينئذ حاجب الحجاب — ومعه جماعة من الحجاب والخدم وجماعة من الأمراء والأجناد إلى لقائه، وأدخل إلى بغداد من باب السلطان بموكب جميل ، فكان عن يمينه جمال الدولة إقبال الخادم، وعن يساره صبيح الخاص الخادم ، وجماعة الحجاب بين يديه، وكان أستاذ الدار ابن الصاحب شديد البغض لابن العطار فى أيامه ويجعل له مساوىء كثيرة وكان يقول للخليفة (١٣٦) إن ابن العطار يطمع صلاح الدين فى الملك ، وذلك لما كان يرى منه من التبجيل والإعظام لأصحاب صلاح الدين ، وكان الخليفة يتغافل عن قوله ويتغاضى عن جوابه

---

(١) أمامها فى الأصل « ورود القاضى ضياء الدين الشهرزورى » وهو كاتب صلاح الدين.

لما يعلم بما بينه وبين ابن العطار ، ثم إن ابن الصاحب نفذ إلى نائب الوزارة ابن البخارى سراً أن لا يقوم لابن الشهرزورى — إذا دخل عليه — حق القيام ، فلما حضر ابن الشهرزورى الديوان العزيز قام قائما وخطب خطبة بليغة ، وكان ذلك بمحضر من جماعة من الأمراء وأرباب الدولة، فاستحسن الجماعة بلاغته، ثم جلس بعد ماقام له ابن البخارى على ركبتيه وأدنى مجلسه، وعرض ما كان معه من التحف والهدايا ، ثم نهض بعد الخدمة ومضى إلى الدار التى أعدت له بخربة الهرّاس .

وكان ابن الشهرزورى قد ألف مدة مقامه فى بغداد [أن] يحضر جماعة من المطربين والأغانى ويتظاهر بذلك ، وكان معه شيخ متهتك يعرف بالبدر ، وكان ابن العطار فى أيامه يحترمه ويعطى هذه الحال مكانته عنده ، فلما ورد فى هذه المرة قصده ابن الصاحب وكشف عليه أحواله وقبح أفعاله وصار يوهن قواعده ويقدم إليه على لسان ابن البخارى أن لا يرجع بكتب إلى الديوان العزيز إلا العبد وإلى أستاذ الدار الخادم ، ثم أذن له بالانصراف بجواب رسالته .

وفيها تقدّم الخليفة بإحضار جماعة من الندماء والجلساء إليه كان كثير الميل إليهم ، وكان فى جماعتهم أبو الحسن بن الكرخى، فكان كثير الجلوس عنده بحيث لا يفارقه ، وكان المذكور يقدح فى أستاذ الدار ابن الصاحب ، وكان الخليفة ينكر عليه فقال له : « يا أمير المؤمنين أكتب له بولاية العهد هذا إن رضى ، والله ما يرضى لأنه اليوم هو الخليفة فكيف يرضى أن يكون ولى عهد؟ ستبصر كيف تكون (٣٦ب) الأحوال معه» ، فنقل ذلك جميعه إلى أستاذ الدار فأحضر ابن الكرخى عنده وخلع عليه وقربه وما عرفه شيئاً مما بلغه عنه، وقال له : «لا تنقطع عنا ، أنت عندنا مثل الولد » .

ثم خاطب الخليفة فى حقه، وطلب له من الدار التى فى الوراقين فتقدم له بها، وكتب له ملكا، وأشهد الوكيل عليه بها ، وكثر ابن الكرخى فى الدولة

وكثر أيضا أبو العز فى الدولة وصار بمنزلة الشرابى، وأنعم الخليفة أيضاً عليه فكان ملازماً للخدمة الشريفة وكذلك محمد بن يحيى الفراش ، وكان هارباً فى أيام المسترضى بأمر الله رضوان الله عليه ، فقربه الناصر لدين الله — صلوات الله عليه — وأنعم عليه .

ثم برز الأمر الشريف إلى المخزن أن يفرض لأبى العز فى كل شهر ثلاثون ديناراً وما يحتاج إليه من خبز ولحم وحوائج ، وكذلك فرض لابن الداية ، وأعطى داراً حسنة بالريحانيين ، وذلك أنه كان يخدم الخليفة لما كان صغيراً فى الكتاب ، وأمر له بتشريف جميل ، وكان هذا المذكور يعرف بابن العوادة .

* * *

وفيها أمر الخليفة — ثبت الله دعوته — بإحضار الربيب ابن رزين رضيعه فشرفه تشريفاً جميلا وأعطاه داراً جميلة فى درب الصاغة ، وتقدم إليه بأن يدخل الدار العزيزة من غير إذن .

* * *

وفيها أيضاً برز الأمر أن ينعم على محمد بن يحيى الفراش من المخزن المعمور فى كل شهر بثلاثين[1] ديناراً وجميع ما يحتاج إليه ، وأن يعطى الدار التى عند عقد الجديد المجاورة لحمام الوراقين . وكان محمد بن يحيى الفراش حسن الخلقة محبوباً إلى الناس، فكان إذا ركب يتفرج[2] الناس على حسنه وخلقته ، وكان الخليفة لا يصبر عنه ساعة واحدة ، وكان من أخص الناس عنده وأحظاهم منزلة .

---

(١) فى الأصل « ثلاثين » .

(٢) فى الأصل « يتفرجون » .

وفى هذه السنة اجتمع هؤلاء القوم المذكورون عند الخليفة وحسنوا (١٣٧) له أن يكون فتىً وقالوا له: « إن هاهنا رجلاً حسنا يقال له عبدالجبار، خلفه خلق كثير ، وهؤلاء يحتاج إليهم فى وقت ». وكان عبد الجبار هذا مشاهراً فى بستان يعرف بالبصرية وهى ملك لابنه جهير ، فأمر بإحضاره فحضر ومعه ولده على الملقب بشمس الدين ، فلما أحضر المذكور شاهده وقرر معه ذلك ، ثم اتفق الحال أن يكون الاجتماع فى بستان يعرف بالرقة وهى فى مقابلة التاج الشريف ، وكان مشاهرُ هذا البستان المذكور رجلاً يعرف بالعقاب يوسف ، نسيباً للشيخ عبد الجبار ، فحضر مع الجماعة عندما لبس الخليفة سراويل الفتوة [1] فعرفه من هناك ، وأنعم على الشيخ عبد الجبار بخمس مائة دينار ، وخلع عليه وعلى ولده على .

ثم إن الخليفة — ثبت الله دعوته — كثر حديثه فى هذا[2] وحسنَ الأمر عنده ولم يبق أحد ممن كان قريباً منه إلا وليس منه سراويلا ، وتقدم إلى أبى على بن الدوامى أن يكون نقيب الجماعة، وأن يخطب ويذكر شروط الفتوة وأحوالها المرضية لأنها من الخصال المحمودة الشريفة والضرائب المشهورة العفيفة ، وكان ابن الدوامى فاضلا حسن الصوت مليح الإيراد، وكان يذكر من المعانى المستحسنة التى تدلّ على مكارم الأخلاق وطيب الأعراق أشياء كثيرة .

* * *

(١) راجع النهج السديد لمفضل بن أبى الفضائل ٨٤ — ٨٥ .

(٢) أى عن الفتوة ، هذا وقد ذكر ابن الساعى المتوفى سنة ٦٧٤ م فى كتابه : مختصر أخبار الخلفاء ، ص ١٠٩ أن الخليفة كان مغرى برمى البندق ولبس سراويل الفتوة ولعب الطيور والمناسيب ، وأفرط فى ذلك افراطا كثيرا حتى كان يبث الى الاقاليم أنه لا يدعى أحد من الرماة الا له ، ولا يلبس أحد سراويل الا له .

وفيها أكثر ابن الكرخى من مدح بيت رئيس الرؤساء وذكر للخليفة أن لعلم الدين بن رئيس الوزراء بن أخى عضد الدين الوزير زوجتين قد أخذ منهما خمسين ألف دينار، الواحدة ابنة عمه دار الذهب، والأخرى الزينبيّة بنت شرف الدين الوزير الزينبي، وهو يتمنى أن يمضى إلى عنده ويعمل لنا دعوة فقال له: « أفعل ذلك ».

وكان مراد ابن الكرخى أن يعطف قلب الخليفة إلى بيت رئيس الرؤساء ويبعده عن أستاذ الدار، فعمل علم الدين له ظاهر دعوة وغرم (٣٧ ب) عليها مالا كبيراً واشترى ثياباً كثيرة بنحو من خمس[1] مائة دينار وحملها إلى الشرابى، وحمل إلى جميع من كان يدخل إلى الخليفة أشياء من الثياب وغيرها ومن الهدايا السنية، وخلع على جميع من عنده فى تلك الليلة، وكان ذلك فى الدار التى فى درب الزينبية التى عند دار الوكيل ضياء الدين أبى السعادات بن الناقد عند عقد المصطنع.

وكان جميع ما جرى فى الدعوة فى تلك السلسلة ينقل إلى أستاذ الدار ساعة فساعة ولا يقدر أحد من الحاضرين أن يكتم ذلك عنه، وكانوا يخافون من أستاذ الدار أكثر من الخليفة صلوات الله عليه، فلما خرجوا من عند علم الدين أبى طاهر بن رئيس الرؤساء قال له ابن الكرخى: « طيب قلبك ولتكن غداً على أهبة، فإن الخليفة يريد أن يجعل أستاذ الدار وزيراً ويجعلك أنت أستاذ الدار، فلا تجعل لنفسك شغلا »، فمضى علم الدين إلى بعض أهله وحصل منه سيف ركاب وجناقات وآلة تصلح لأستاذية الدار، وأقام بعض غلمانه سلاح دار، وأصبح يرتقب من يأتى إليه من دار الخلافة، فلما نقل ذلك إلى أستاذ الدار من ليلته نفذ من صبيحة تلك الليلة وأنكر على علم الدين ابن رئيس الرؤساء على لسان محمود الشرابى وكان يتحبب لأستاذ الدار — وقال له: « والله لولا أن أهل بغداد يعتقدون أنى أقصد بيت رئيس الرؤساء [ولولا

---

(١) فى الاصل « خمسين مائة ».

أننى] إذا أمرْتُ فيك بأمر نسبتُ فيه إلى القصد لقد كنت أتقدم بصلبك، ومتى رجعت إلى مثلها أمرتُ بصلبك » . فمن بعد ذا لم يجسر أحد أن يذكر بيت رئيس الرؤساء .

وأما ابن الكرخى فإنه حضر عند أستاذ الدار وعتب عليه فقال له ابن الكرخى : «إنما سخرت به حتى خسر ألف ألف دينار وضحكنا عليه»، فقال له : « لقد عملت جيداً ونعما فعلت » ، وكان مع ذلك يضمر لابن الكرخى السوء ويدبر فى هلاكه .

(١٣٨) وأما عالم الدين ابن رئيس الرؤساء فإنه خاف على نفسه فمضى إلى ابن القصاب — وكان حينئذ فى خدمة الدار أستاذ يرسله إلى الجوانب — فسأله أن يشفع له ويستوهب له ذنبه ، فشفع له فوهبه جرمه ، وسأله أن يأذن له فى الحضور على طبقه فى شهر رمضان ، فأذن له فى ذلك .

* * *

وفيها كان الفراغ من بناء دار المسناة التى على شاطىء دجلة، وكان المتولى عمارتها الحاجب الأعز ، وهى أول دار شرع الخليفة فى عمارتها للتنزه والفرجة ، وهى أول دار فرشت طوابيق ملونة : أزرق وأحمر وسائر الألوان ، وكان الخليفة كثير الملازمة لها والحضور فيها ، وهى من الدور المستحسنة بنيت على طرف السور مما يلى دجلة ، قد غرم عليها أموالا جمة ، ولما تم عملها نقل إليها فرساً كثيرة وآنية من ذهب وفضة ، ورتب فيها جماعة من المماليك والخدم لحفظها وحراستها يلازمون الخدمة فيها دائما وإلى الآن ، فإذا كان راكبا فى دجلة أو على ظهر وأراد الدخول إليها تكون مهيأة للقعود فيها والسكنى بها ، وجعل لهذه الدار حرمة قاطعة كحرمة التاج الشريف بحيث لا يقدر أحد يقعد تحتها ولا يدنو منها، إلا إن كان سائراً فى سفينة فحسب .

وكان أستاذ الدار قد وصف للخليفة نويس المغنيه زوجة ابن رئيس الرؤساء وعائشة السوداء زوجة ابن الكرخى ، فنفذ وأحضر المرأتين المذكورتين ، وأحضر جماعة منهم نجاح وأبو العز ومحمد بن يحيى [الفراش] وابن الكرخى وأبو على الدوامى وجماعة من المماليك وفراش[1] الدار ، وكان قد اتفق جماعة من الناس وأكثر أهل بغداد بأن مابيغداد مغنية أصنع من عائشة السوداء ، ولا [غناء] أطرب من غنائها ولا [صوت] أرق من صوتها ، وذكر أن الخليفة قال للكرخى فى تلك الليلة « فمنها[2] ركوبهم ومنها (٣٨ ب) يأكلون » ، يعنى بذلك ابن الكرخى وزوجته السوداء المغنية ، فعجب الناس من قوله وقالوا : « استشهاد فى موضعه » .

* * *

وفيها قدم إلى بغداد ابن رئيس همدان وكان معه مال كثير وغلمان وخدم ، ومعه من جملة مماليكه مملوك حسن الهيئة تام الخلق يقال له « سنجر » ، وكان له خيمة مضروبة على شاطىء دجلة عند مشرعة مشهد أبى حنيفة رضى الله عنه ، فكان كذلك أياما لايزال يشرب الخمر وكان لايزال مخموراً ، فبينما هو كذلك إذ دخل عليه جماعة من العيارين ليلا فقتلوه وهو سكران وأخذوا كثيراً مما كان معه من الأموال ، وأصبح الناس يخوضون فى حديثه ، واتهم جماعة بقتله ، وكان أكثر أهل بغداد يزعمون أن قاتله بدران الحسامى ؛ وعلم الخليفة بقتله فتقدم إلى أستاذ الدار بالكشف عمن قتله ، فتقدم أستاذ الدار بالكشف عن الحال وأخذ سنجر وقال « إن أمير المؤمنين قد كبرت عليه هذه الحال » ، فبقى[3] سنجر أياما كثيرة لم يخرج من الدار ، فلما خرج وركب كان عليه وعلى فرسه مايساوى خمسة ألف دينار إمامية ، وصار سنجر يخرج ويدخل إلى البدرية كل يوم ، وكان يخرج وعليه فى

---

(١) فى الاصل « رفاشين » .

(٢) قرآن كريم سورة يس ٣٦ : ٧٢ .

(٣) يستدل من هذا الكلام على أنه لايزال حيا ، على حين أن مفهوم الخبر — قبل ذلك ببضعة أسطر — صريح على أنه قتل .

كل وقت لون من الثياب الفاخرة ، وحصل له من المنزلة عند الخليفة ما لم يحصل لأحد منه قبله ، وهو على غاية من العقل والسكينة ، وكان مع ذلك لايزال الخليفة يصفه بالعقل ويقول : « مارأيت ولاملكت الملوك أعقل من سنجر ولامثله ، إلا أن فيه ظلما[1] » ، وكان مع ذلك قليل الصمت ، وكانت حاله كلما جاءت كثرت .

وسنذكر زيادة منزلته فى كل سنة بقدر ما انتهى إليه حاله إلى الآن .

وفيها اشترى إياس الرومى وكان من أحسن الناس خلقة ، واستخدم ابن امرأة لأبى الفتوح المغنّى ويعرف بأبى الحسن ، وكان من المذكورين ببلاده[2] (١٣٩) بالجمال المفرط، وفرض له كل سنة مائتين وخمسين ديناراً ، وجعل فى جملة المماليك الخواص .

* * *

وفيها احتال عبد الوهاب وأخذ قلعة المهكى وهى من أحسن القلاع التى بالعراق ، وصورة ذلك — كما ذكر لنا — أنه كان لعبد الوهاب راعى غنم ، فمضى إلى تحت القلعة المذكورة ، فرأى فى رأس الجبل الذى عليه القلعة شجرة قوية فعاد إلى عبد الوهاب وأخبره بما خطر له ، فمضى مع الراعى يرعى الغنم ذلك اليوم ويبصر ما قاله الراعى وما خطر له ، فلما شاهد الموضع رجع وأحضر نجاراً وقال : « أريد تعمل لى سلما يكون عدة أقطاع، ويوصل بحديد ، ويكون على شكل أعمدة الخيم » ، فلما فعل ذلك وحصل جميع ما يحتاج إليه أحضر جماعة من بنى عمه وأتى إلى تحت القلعة فى ليلة مظلمة كثيرة الهواء والمطر ونصب السلم ، وصعد واحد من الجماعة واجتهد على رؤية الشجرة فلم يقدر ، فقام يرمى نفسه يميناً وشمالا وهو قائم على رأس السلم، وأشرف على الهلاك وكاد أن يسقط ، فوقعت إحدى يديه فى الشجرة فتعلق بغصن منها وصعد إليها فاعتنقها ساعة حتى رجع روعه إليه ، وكان

---

(١) فى الاصل « ظلم » .

(٢) غير مقروءة فى الاصل .

معه حبل مشدود فى وسطه فحله ورمى بطرفه إلى إحدى شرافات القلعة، فعلق بها وصعد فصار فى رأس القلعة ، وألقى الحبل إلى جماعة فصعدوا إليه واحد بعد واحد ، إلى أن تكاملوا فى القلعة .

وكان بها مملوك من مماليك المستضىء بأمر الله — رضى الله عنه — وهو سكران، فنزلوا إلى الموضع الذى فيه المفاتيح فقتلوا من كان هناك وأخذوا المفاتيح ودخلوا الخزائن فلبسوا العدة الكاملة، وخرجوا إلى المملوك فقتلوه على (٣٩ب) [فراش][1] نومه، وفتحوا الأبواب ، وقتلوا جماعة وأطلقوا من أرادوا وملكوا القلعة ، ورموا[2] رأس المملوك ورؤوس الجماعة الذين قتلوا معه من القلعة ؛ وصار عبد الوهاب متحكماً بذلك المكان .

وبلغ الخبر إلى بغداد فأمر الخليفة بإخراج العسكر المنصور، وكان المتقدم على العسكر سنقر الكبير المستنجدى ، وخرج معه جماعة من المماليك الأمراء الكبار ، مثل سنقر الصغير وغرغلى ، ومضى معهم الكافى ابن الهمذانى وكان خبيراً بتلك الخطة ، فسار العسكر إلى أن نزلوا قريباً من القلعة وراسلوا عبد الوهاب وبذلوا له أموالا كثيرة وإقطاعيات جليلة فلم يقبل[3] ولم يلتفت إلى قول أحد واعتصم بها ، ولم يمكن العسكر من الدخول إليها لوعر طريقها وامتناعها ، وطالت المدة فتقدم الخليفة برجوع العسكر لما أعجزهم الأمر .

فلما دخل العسكر إلى بغداد أمر الخليفة بالقبض على حسام الدين غرغلى وعلى سنقر الصغير .

وكان فى نفس الخليفة على سنقر الصغير حقد من زمن أبيه لأنه كان قد اتفق مع ابن العطار — حين كان مستولياً على دار الخلافة — أن

---

(١) غير واردة بالأصل .
(٢) « أرموا » فى الأصل .
(٣) فى الأصل « يفعل » .

لا يرتبه خليفة وأراد أن يرتب[١] أخاه الأمير أبا منصور عوضه ؛ فلما قبض عليه حمله إلى التاج العتيق وجعله فى دار الحشاشيف ، وكذلك فعل بحسام الدين غرغلى ، وأخذ جميع ما كان لهما من خيل وبرك[٢] وذهب وآلات حروب وعُدد حتى نقل من دار سنقر الصغير أموالا كثيرة من آلات وثياب وذهب وفضة وغير ذلك من يوم الجمعة إلى الجمعة ما لا يحد له حصر ، وقيل للخليفة — أيده الله تعالى — أن لسنقر الصغير أموالا مدفونة فى داره، فأمر بنقض الدار فنقضت، وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال ، وأخذ من جاريته — أم أولاده — ثلاثين ألف دينار ، ونقل أولاد سنقر (١٤٠) الصغير إلى دار فى قصر الخلافة فتركوا بها ، ووكل بهم جماعة من الفراشين ، وطلبت أم الخليفة — أجلّها الله تعالى — منه موضع دار سنقر الصغير لتعملها رباطاً للصوفية فأذن لها فى ذلك ، وسألته عمارة الموضع فتقدم إلى أستاذ الدار بعمارة الموضع فشرع فى عمارته من ديوان الأبنية ، وجمع له من الصناع والبنائين والنجارين وسائر أصحاب الصنايع جماعة كبيرة ، فبنى الموضع أحسن بناء يكون، وهو فى المحلة المعروفة بالمأمونية ـ أحسن موضع من بغداد ـ فى وسط السوق .

وفيها نفيت[٣] امرأة كانت تعرف بالخليعة وكانت فيمن يدخل إلى دار حسام الدين غرغلى وأمر بنفيها إلى البصرة ، وسبب ذلك أنه نقل عنها أنها قد أحضرت عندها جماعة من الاسماعيلية من حلب ، حتى يتعرضوا[٤] لقتل الخليفة وقتل أستاذ الدار أمين الصاحب ، وكان زوجها ركابيا[٥] من

---

(١) فى الأصل « نزب » .

(٢) البرك هو المتاع الخاص من ثياب وقماش وخلافه ، انظر فى ذلك :
Quatremère: Hist. des Mamlouks, t. I, pt. 1, p. 253, Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) فى الأصل « أنفيت » لم ينقط فيها غير التاء .

(٤) « يتعرضون » فى الأصل .

(٥) الركابى أو الركابدارى أحد طائفة ممن تحمل المشاعل أمام ركاب السلطان أو الخليفة فى مواكب العيد وأمثاله راجع القلقشندى : صبح الاعشى ٧/٤ ، ١٢ ، والمقريزى : الخطط ٢٠٩/٢ .

ركابية الخليفة فقبض عليها وأخذت فى سفينة إلى البصرة ، وتقدم الخليفة بغلق باب الأمير حسام الدين غرغلى وضربوا فيها مسامير بحيث لاتفتح ، وكذلك فعلوا بالمحارق من أعلى الدار وضربوا فيها مسامير بحيث لا يصعد أحد إلى سطح الدار ، ووكل أيضا بالدار جماعة من الفراشين .

ذكر

ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين من الغزوات والفتوحات والأحوال بمصر والشام فى سنة ثمان وسبعين [وخمسمائة]

ودخلت هذه السنة والسلطان مخيم على البركة[١] من أرض مصر بجميع عساكره ، شديد العزم على قصد الشام ، فكان رحيله[٢] من البركة يوم الاثنين خامس محرم فسار على طريق صدر، وكان نزوله على أيلة بعد خمس ليال، فبلغه حينئذ نزول الفرنج على الكرك بجمع كبير (٤٠ ب) فحين تحقق ذلك قال لأخيه تاج الملوك بورى : «خذ الناس[٣] معك وسر بهم وما معهم من الأثقال والتجارة على طريق يمينة منا »، فامتثل أمره وسار بهم .

وأما السلطان فإنه سار بمن انتخب من عساكره وتوجه بهم إلى الكرك ووصل إليها بعد أيام فوجد بها جمعا عظيما من الفرنج ، فنزلنا قريباً منهم فأذللناهم وضايقناهم حتى لاذوا بالجدار فاستولينا[٤] عليهم فقطعنا أشجارهم ورعينا زروعهم ، وجعلنا نشن الغارات عليهم مدة عشرة أيام ، فلما رأى

---

(١) المقصود بذلك بركة الحبش .

(٢) كان هذا آخر رحيل له عن مصر اذ لم يعد اليها ، انظر ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٤

(٣) الوارد فى ابن الاثير نفس المرجع والجزء والصفحة أنه سير « الضعفاء والاثقال» مع اخيه تاج الملوك بورى الى دمشق غير مستبق معه سوى العساكر المقاتلة ، راجع أيضا الروضتين ٢/٢٨ س ٩ — ١٢ .

(٤) يستفاد مما ذكره ابن الاثير ١١/١٩٤ أنه لم يخرج اليه من الفرنج أحد رغم كثرة ثنة الغارات فى هذه السفرة على اطراف بلادهم لاسيما الكرك والشوبك .

السلطان ذلك أمر الناس بالرحيل خوفاً من قلة أزوادهم وسار من يومه ، فبينا نحن سائرون إذ أتاه نجابون يبشرونه بنصرة عمى عز الدين فرخشاه فى غزوة دبورية[1] .

* * *

ذكر غزوة دبورية

لما تحقق الفرنج رحيلنا من مصر بالعساكر وما انضاف إليها من الناس والتجار اجتمعوا على الكرك كما ذكرنا لقربهم من الطريق، وكان غرضهم فى ذلك إنتهاز فرصة يجدونها ، فلما أذلهم الله تعالى بيأسنا وطال مقامنا عليهم تلك الأيام المعدودة ووصل عمى فرخشاه خبرنا نفر بمن معه من الفرسان وتبعه جماعة كبيرة من الناس ، واغتنم خلوهم من بلادهم فسار إلى دبورية وأهلها غارون، فأغار على ربضها فقتل منهم خلقا كثيراً وأسر نحواً من ألف نفر بين كبير وصغير، وساق أغنامهم وأبقارهم ، وأحرق وخرب ، ونزل على حبيس[2] جلدك ففتحه ، وهو حصن من أعمال طبرية ، وكان اجتماع عمى فرخشاه مع السلطان دون بصرى ، ثم نزلنا بها وسرنا منها متوجهين

---

(١) ضبطها ناشر مراصد الاطلاع بفتح الدال وتشديد الباء المضمومة ، والواردهناك ٥١٣/٢ فى تعريفها انها بلد قرب طبرية من أعمال الاردن ، ووردت بصورة Daboura فى كتاب Dussaud: Topographie de la Syrie, p. 382 بانها واقعة فى شرقى بحيرة حولة .

(٢) لما تم فتحه اسكنه المسلمين وبذلك صار هذا الحصن عينا على الفرنجة ، راجع أبا شامة : الروضتين ٢٨/٢ ، وانظر ايضا Grousset: op. cit., II, p. 717 أما فيما يتعلق بالناحية الجغرافية فقد ذكره مراصد الاطلاع ٣٧٨/١ فقال « الحبس قلعة بالسواد من أعمال دمشق يقال لها حبيس وياقوت ٢٠١/٢ ، Dussaud: op. cit., p. 363 et seq. حيث عرفه بأنه صخرة تسيطر على الاقاليه الاسلامية ، ويرجح هذا المؤلف ان موقع حبيس جلدك اليوم هو ما يعرف بقصر برويل شمال العال .

إلى دمشق فكان دخولنا إليها يوم الاثنين سابع[١] عشر صفر، فلم يزل السلطان بها تمام الشهر المذكور وأياما قلائل من شهر ربيع الأول ، ثم توجه إلى غزوه طبرية وبيسان .

ذكر غزوة طبرية وبيسان (٢)

ولما وصل السلطان إلى دمشق اجتمعت إليه عساكر الإسلام فسار بهم إلى طبرية وبيسان وذلك يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول ، فصبح الفرنج يوم الثلاثاء بطبرية فوجدهم قد وصلوا إليها ونزلوا فيها بجموعهم ، فسيرنا جماعة يتطلعون عليهم فلم يجدوا أحداً منهم راكباً ولا خارجاً ، وكنا نازلين من الأقحوانة[٣] [من الأردن] على أحد ثغورهم ، فلما رأيناهم قد أحجموا عن لقائنا وأقاموا في موضعهم اتفقنا على المسير إلى بيسان لاستجرارهم، فسبق عمى عز الدين فملك ربضها ، وكانت العرب — ومن خف معها — قد انحازت نحوها فأوسعوا أهلها[٤] قتلا ، ووصل الخبر من البزك أن الفرنج قد أجلبوا بخيلهم ورجلهم ، فاشتغل السلطان بترتيب الأطلاب وتحريض الناس على الجهاد ، فجعل والدى الملك المظفر فى الميمنة ، وعمى عز الدين فرخشاه فى الميسرة ، وقرب الفرنج منا فرأوا من العدة والناس ما هالهم[٥] ، فلجأوا إلى حصن[٦] كوكب ، فسبقت أطلاب الميسرة

---

(١) يتفق أبو شامة : الروضتين ٢٨/٢ والمتن أعلاه فى هذا التاريخ ، لكن الوارد فى ابن الاثير ١٩٤/١١ هو أن دخول صلاح الدين دمشق كان ١١ صفر من هذه السنة ٥٧٨ هـ وسار على نهجه أيضا التوفيقات الالهامية ص ٢٨٩ .

(٢) الضبط من مراصد الاطلاع ٢٤١/١٤ حيث عرفها بأنها مدينة بالاردن بالغور الشامى

(٣) مراصد الاطلاع ١٠٣/١ حيث ذكرانها على شاطىء بحيرة طبرية .

(٤) يقصد بذلك أهل جنبين واللجون ، راجع ابن الاثير : الكامل ١٩٥/١١ .

(٥) فى الاصل « أهالهم » .

(٦) عرفه ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ، ١١٨٨/٣ بأنه قلعة على الجبل المطل على طبرية وتشرف على الاردن ، وانهامن فتوح صلاح الدين وقد خربت بعده ، كما انها كانت فى وقت هذه الاحداث تابعة للفرسان الاسبتارية ، انظر فى ذلك ابن واصل : مفرج الكروب ٢٤٦/٢ . راجع أيضا ياقوت : معجم البلدان ٣٣٨/٤ .

وجالت الجاليشية ترميهم بالسهام ، وعطف عليهم والدى بمن معه من الميمنة ، وكنا فى واد صعب ومضيق ، وتواترت على الفرنج الحملات فطحنتهم الأبطال فصاروا بين قتيل وأسير ، وانهزموا على أعقابهم لائذين بالحصن ، وكان ذلك يوم الخميس ثانى عشر ربيع الأول ، وأقمنا باقى يوم الخميس ويوم الجمعة لجمعهم منازلين ، ولخروجهم محاولين ، كانت وقعة شديدة استشهد من المؤمنين فيها جماعة من الأبطال ؛ ورجع الناس بما معهم من الأسارى ، وعاد السلطان من غزوة طبرية رابع عشر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة . وكان مخيم السلطان فى هذا الشهر «بالعفر[1]» بلا، من أعمال حوران .

ولما (٤١ب) رجع [السلطان] من غزوته تلك أقام بمخيمه وطال مقامه هناك إلى [أن] تجدد عزمه على قصد حلب وعبور الفرات .

* * *

ذكر قصد السلطان الى حلب وعبور الفرات واستيلائه على الموصل وبلاد الجزيرة وغيرها

لما وصل السلطان إلى الشام عزم على قصد حلب وجهاد من بها، وذلك لما بلغه عن المواصلة أنهم قد كاتبوا الفرنج وأنفذوا إليهم الرسل وبذلوا لهم الأموال ورغبوهم فى الخروج إلى الثغور . فقال السلطان : « قد وجب علينا النهوض إليهم والجهاد لهم » ، وكان ذلك عند عودته من غزوة طبرية وبيسان واستقراره بالمخيم . فأمر الناس بالرحيل وسار على سمت[2]

---

(١) بلد بقرب بيسان وطبرية بالاردن ،مراصد الاطلاع ٩٤٦/٢ ،ياقوت : معجم البلدان ٦٨٨/٣ ، هذا ويلاحظ أن المقريزى : السلوك ٧٨/١ ذكر أن مخيم السلطان كان فى الغوار » من أعمال حوران وليس بالعفربالا ، وقدرسمهاابن الاثير : الكامل ٩٥/١١ بالغين فقال «غفربلا» وهو خطأ .

(٢) راجع الحاشية رقم ١٤٣ .

يلاحظ أن عبارة « على سمت ...بلاد الساحل » فى السطر التالى هى نفس العبارة التى استعملها أبو شامة فى الروضتين ٢٩/٢ س ٢٣ — ٢٤ مع أسقاط كلمة «بعض» فقط .

ببعلبك وخيم بالبقاع ، وكان قد وعد أسطول مصر أن يتجهز إلى بعض بلاد الساحل ليوافيه[١] ويسير بعساكره إليه ، فجاء الخبر انه وصل إلى ساحل بيروت ، فبادره السلطان بعسكره جريدة[٢] ، فلما رأى ذلك أمراً يطول أعاد عمى عز الدين فرخشاه إلى دمشق ليقوم فى سد ثغورها وترتيب أمورها ، وتوجهنا بعد ذلك إلى بلعبك وخيمنا بمرج عدوسة أياما ، ورحلنا إلى حمص على طريق الزرّاعة[٣] فنزلنا بها ، ورحلنا منها فنزلنا بحمص على العاصى ، وجاء[٤] الفقيه المهذب عبد الله بن أسعد الموصلى فمدح السلطان بهذه القصيدة :

أعلمتَ بعدك وقفتى فى الأربع[٥]
ورضى طلولك عن دموعى الهُمَّع
مطرت غضاً فى منزليك فذاوياً
فى أربع ، ومؤججا فى أضلعى
لم يثن غرب الدمع ليلة غرّبوا
ولع العزول بفرط عزل المولع
يلحى الجفون على الدموع لبَيْنهم
والعذل — فرط العذل — إن لم تدمع
(١٤٢) دعنى وما شاء التلذّذ والأسى
واقصد بلومك من يطيعك أو يعى

---

(١) فى الأصل « ليوافقه » .

(٢) الجريدة فى الاصطلاح الايوبى والمملوكى بمعنى الفرقة من الخيالة ، انظر : Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٣) لعله يقصد طريق زراعة زقر الذى مراصد الاطلاع ٦٦١/٢ أنه قرب بالس من أرض حلب ، انظر ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك (المكتبة الجغرافية) ج ٢ ليدن ١٨٧٣ ص ١٦٦ ، وقدامه : كتاب الخراج طبعة ليدن) ص ٢١٨ .

(٤) ازاءها فى هامش المخطوطة عبارة «عبد الله بن أسعد الموصلى الفقيه المهذب ».

(٥) « الأجرع » فى الروضتين ٢٩/٢ ،وقد وردت هذه القصيدة فيما يلى على الترتيب التالى ١ ، ٢ ، ٧ ، ٥ ، ٦ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٤٨ .

لا قلب لى فأعى الملام فإننى
أودعتُه بالأمس عنـــد مودّعى

هل يعلم المتحمّلون لنجعة
أن المنازل أخضبتْ من مدمعى

كم غادروا حرضا وكم لوداعهم
بين الجوانح من غرامٍ موجع

أمروا الضحى أن يستحيل لأنهم
قالوا لشمس خدودهم : لا تطلعى

تحمى قبابهمو ظُبىً فى كلة
وتذود عنهم أســـهم فى برقع

قل للبخيلة بالســلام تورّعا
كيف استبحت دمى ولم تتورعى !

وبديعة الحسن التى فى وجهها
دون الوجوه عناية المبدع

بيضاء يدنيها النوى ، ويحلّها
إعراضها فى القلب ألطف موضع

ما دام(١) معتمر بربعك دائباً
يقضى زيارته بغـــير تمتُّع

كم قد هجرتِ إذ التواصل مكتب
وضررْتِ قادرة على أن تنفعى

ماكان ضرّك لو غمزْت بحاجب
عنـد التفوّق أو أشرْت بإصبع

---

(١) فى الروضتين ٢/٢٩ « مابال » .

ووعدتنى إن عدتِ عَوْد وصالنا
هيهات ما أبقى إلى أن ترجعى
هل تسمحين ببذل أيسر نائل
أنْ أشتكى وجدى إليك وتسمعى
أو شاهدى جسمى ترى أين الهوى
أو فاسألى إن شئت شاهد أدمعى
والسقم آية ما أجن من الجوى
والدمع بيّنة على ما أدّعى
فتيقّنى أنى بحبك مغرم
ثم اصنعى بى ما شئت أن تصنعى
(٤٢ب) ياصاح هل أبصرت برقا خافياً
كالسيف سُلّ على أبارق لعلع
برق إذا لمع استطار فؤاده
وبيت ذا قلق إذا لم يلمع
فسقى[٢] الربيعُ الجونُ ربعاً طالما
أبصرت فيه البدر ليلة أربع
ولو استطعت سقيتَه سَيْل الغنى
من كفّ يوسف بالأدر الأنفع
بِندى[٣] فتىً لو أن جود يمينه
للغيث لم يك ممسكا عن موضع
للمعتفين رخاء ريح سجسج
والمعتدين عجاج ريح زعزع

---

(١) فى الروضتين ٢٩/٢ « مابال » .
(٢) « عفى » فى الروضتين ٣٠/٢ .
(٣) « بيدى » فى شرحه .

ربّ المكارم وُضّحا لم يستتر
بدنيّة يوما ولم يتقنّع
ومديم بذل النفس غير مفرط
وكثير بذل المال غير مضيّع
فإذا تبسّم قال : ياجود اندفق
فيضا وياسحب الندى لا تقلعى
وإذا تنمرّ قال : يا أرض ارجفى
بالصاهلات ، وللجبال تزعزعى
وإذا علا فى المجد أعلى غاية
قالت له الهمم الجسام : ترفّع
ثبت الجنان — إذا القلوب تطايرت
فى الروع — يعدل ألف ألف مدرّع
فَضُل الورى بفضائل لم تتفق
فى غيره ملكا ولم تتجمّع
مارام صعبَ المرتقى متصاعداً
إلاّ وكان عليه سهل المطلع
جمع الجيوش فشتّ شمل عداته
مافرّق الأعداء مثل بجمّع
لم يثنه عن نصره حلفاءَه
عَدَدُ العدوّ ولا بعاد الموضع
بجحافل مثل السيول تدافعت
وإذا السيول تدافعت لم تدفع
(١٤٣) إنْ يتبع فلكَم له من تابع
أوفى وأوفر عزة من تبّع

من دوحة شاذية أرجَتْ لها
الدنيا لطيبِ شـــذاً لها متضوع
والناثرين الهـــام يبرق بيضه
والخارقين مضاعفات الأذرع
قوم إذا ارتفـــع الصريخ تبادروا
نحو الحمام بكل أبلج أروع
والواصلى قُصْر الظبى بخطاهمو
والقاطعين بهـــا طوال الأذرع
لا يغرُرَنّ الرومَ بعـــدُ ديارهم
إن الخليج عليك أقرب مشرع
لو أن مثل البحر سبعة أبحر
من دونهم وأردْتهم لم تمنَع
كم وقفةٍ لك فى الوغى محمودة
أبداً وكم جودٍ حميـــد الموقع
والطير من ثقـــة بأكلٍ مُشْبِعٍ
تبعت جيوشك فوق غاب مُشبِع
والناس بعدك فى المكارم والعلا
رجلان : إما سارق أو مدّعى
يا غيث منسكب وَماحـــلَ مربعى
بنداك إلا ذا غدير مترع
راجعْتُ فيك الشعر بعد طلاقه
طمعا بجودك أى موضع مطمع
لولاك لم أرض القنوع وذله
من بعد طول تعزّز وتقنّع

فسؤال جودك عزة للمجتدى
وندالك تشريف ورفعة موضع
فاسلم على مر الزمان ممتعا
بالملك دهراً والمحل الأرفع
فإذا بقيت فلست أحفل من مضى
وإذا حييت فما أبالى من نُعِى

* * *

ثم إن السلطان بقى بحمص أياما قلائل ورحل منها قاصداً إلى حماة فنزل بها، وكانت [حماة] لوالدى(٤٣ب) الملك المظفر وكنا معه، فأمره السلطان أن يرتب أمور حماة ويرتب أحوال ثغرها فعمل ما أمره ، وبقى السلطان بحماة يومين ثم رحل عنها يريد حلب وفى عزمه النزول عليها ، فبينا[١] نحن سائرون وإذا قد وصل كتاب مظفر الدين كوكبورى[٢] بن [زين الدين] على [بن بكتكين] كوجك ، فأعلم السلطان بوصوله إلى خدمته والدخول تحت أمره وطاعته ، فلم يلبث أن وصل مظفر الدين [كوكبورى] واجتمع بالسلطان وخلى به وأشار عليه بعبور الفرات والاستيلاء على تلك الممالك والولايات، وقال له: «أنا بين يديك وناصح لك ومحب لأيامك، وقد علمت ما المواصلة عليه من نكث إيمانك وعهودك ، وإذا ملكت تلك البلاد

---

(١) يستفاد من هذا الكلام ان مظفر الدين كوكبورى وصله وهو سائر الى حلب بعد رحيله عن حماة ، على حين ان رواية ابن الاثير : الكامل ١٩٦/١١ تنص صراحة على أن هذا الكتاب وصله « وهو يحاصر بيروت يعلمه انه معه ، محب لدولته ، ووعده بالنصر اذا عبر الفرات . . فسار صلاح الدين عن بيروت » . يضاف الى هذا ان السبب الذى حدا بمظفر الدين كوكبورى لهذا الموقف هو أن الوحشة كانت قد دبت بينه وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ومجاهد الدين قايماز ، والواقع ان كوكبورى كان فى نفسه احن من خصاحب الموصل ، ومن ثم فقد أنح على صلاح الدين ان يبدأ بالموصل عقب انتصاره فى نصيبين كما سيلى هنا ص١٠٢ — ١٠٣ راجع أيضا ابن واصل : مفرج الكروب ١١٦/٢ . ١١٩

(٢) فى الكامل ١٩٦/١١ « كوكبرى بن زين الدين على بن بكتكين » .

واستوليت عليها يبقى لك من ورائك ذخيرة ونجدة ، وأنت بعد ذلك على أثناء عزمك، وإن قصدتَ حلب فإنها تشغلك عن الأمور ومهماتها والجزيرة وولاياتها ، وقد حصلت لك المحبة العامة والمهابة فى قلوب الناس ، ومتى عبرْت الفرات سَلمَتْ إليك البلاد وأطاعتك العباد، فملكتَ حران والرها والرقة والخابور [١] ونصيبين وسائر المواضع وملكت الموصل لامحالة ، وما هناك فى تلك الجهات أحد يقدر على عصيانك » ، فشكره على ماظهر منه واستوثق منه وودعه ورجع إلى حران .

وأما السلطان فإنه توجّه نحو ألبيرة ومد الجسر وأمر الناس بالعبور ، وكانت ألبيرة قد طمع فيها صاحب [٢] ماردين فاستولى على مواضع من أعمالها ، فلما سمع بوصولنا إلى الفرات انهزم من كان من أصحابه بتلك الخطة ، فأعدنا إليها شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقى ، وشرعنا فى أمر العبور، وبدأنا ننقل الأثقال إلى بطون السفن خوفاً من ازدحام الناس على الجسر ، وضرب كل منا خيمة بالجانب الشرقى [و] تحوّل السلطان عنه وتخفف نحوها ثقله (١٤٤)، وأمددنا من معاقل الأرمن بسفن كثيرة فعبر الناس كافة ، فلما قطعنا الفرات كاتبْنَا [٣] أصحاب الأطراف ليدخلوا فى الطاعة ، فمن سلم سلمت عليه بلاده ، ومن أبى توجّهْنا إليه ، فأول من وصل إلينا رسول نور الدين محمد بن قرا أرسلان [بن نعمان بن أرتق]

---

(١) اسم لنهر كبير مخرجه من رأس عين يصب الى الفرات من أرض الجزيرة ، وهو يستقبل فى يساره مياه نهر ماردين ويصب فيه أسفل من ذلك نهر الهرماس الاتى من نصيبين ، راجع ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٤٤٤/١ ، لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٧ .

(٢) هو قطب الدين ايلغازى بن نجم الدين ألب بن تمرتاش بن أرتق .

(٣) أورد ابن واصل : مفرج الكروب ١١٧/٢ فقرة من الكتاب الذى أرسله صلاح الدين الى ملوك الاطراف لما نزل على ألبيرة وهى قوله « من جاء مستسلما سلمت بلاده حتى أن يكون من أحباء السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة » .

صاحب حصن كَيْفا[١] بذكر وصوله إلى الخدمة السلطانية ويذكر ما سبق إليه من إحسان[٢] البيت الأيوبى .

* * *

ذكر وفاة عمى فرخشاه عز الدين

ولما عبر السلطان الفرات وافاه النعىّ بوفاة[٣] عمى عز الدين فرخشاه، فتقدم فى الحال إلى شمس الدين [محمد بن[٤] عبد الملك] بن المقدم بالعود إلى دمشق وكتب له منشوراً[٥] بولايتها ودخول من بها تحت طاعته، فسار من وقته إلى دمشق وتوجه السلطان إلى الرها .

---

(١) الضبط من مراصد الاطلاع ٤٠٧/١ اد قال فى شأنه انه بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين امد وجزيرة ابن عمر من دياربكر ، وذكر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٤ — ١٤٥ انه سمى عند الروم Kiplas او كيف Ceple انظر أيضا ياقوت : معجم البلدان ٢٧٧/٢ .

(٢) يقصد المؤلف باحسان البيت الايوبى أن الحال بين صلاح الدين ومحمد بن قرا ارسلان كانت قد استقرت على ان يقوم السلطان بحصار آمد ويمتلكها ثم يسلمها الى ابن قرا أرسلان ، وكان هذا الاتفاق قد تم وقت وجود الاخير لدى صلاح الدين بالشام .

(٣) كانت وفاة الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك فى جمادى الاولى سنة ٥٧٨ هـ ، انظر ابن الاثير : الكامل ٢٠٠/١١ ، وابن واصل : مفرج الكروب ١٢٤/٢ — ١٢٦ ، والمقريزى : السلوك ٧٩/١ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان وابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب .

(٤) الاضافة من ابن واصل : مفرج الكروب ٢٥٠/٢ — ٢٥١ .

(٥) المنشور اصطلاح خاص بهذا العصر والتالى له فى مصر المملوكية ، وهو أمر سلطانى ويختلف باختلاف مرتبة الصادر اليه ، فان كان من اعلى المراتب من الامراء كتب فى قطع الثلثين من الورق ويكتب فى طرفه من يمين الورق بغير هماش « منشور شريف » ويكون هذا لمقدمى الالوف بالديار المصرية سواء أكانوا من أولاد السلطان أو الخاصكية وكذلك جميع النواب الاكابر بالممالك الاسلامية والمقدمون بدمشق ، أما ان كان الصادر اليه من أمراء الطبلخانات بمصر والشام فيكتب له فى قطع النصف ، وان كان من أمراء العشرات مطلقا بسائر الممالك وكذلك الطبلخانات من التركمان والاكراد فيكتب فى قطع الثلث ، وان كان من جملة المماليك السلطانية أو مقدمى الحلقة أو رجالها فيكتب فى قطع العادة المنصورى ، انظر القلقشندى : صبح الاعشى ١٥٨/١٣ .

ذكر مسيرنا الى الرها وفتحها

ولما وصلنا إلى الرها حصرناها أياما [من شهر جمادى[١] الأولى] وكان فيها الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى ، فأخذ فى الجدّ والتشمير والامتناع ، فخاف عاقبة ذلك فأرسل إلى السلطان بتسليمها[٢] طلبا للسلامة ، فأنعم بها السلطان لمظفر الدين [كوكبورى] إضافة مع حران ، ثم توجهنا إلى حران[٣] ودخلنا منها إلى الرقة .

ذكر النزول على الرقة وفتحها

ثم إن السلطان توجّه من حرّان إلى الرقة فنزل عليها وحاصرها ، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسّان [المنبجى] ، وكانت قد سبقت منه إساءة وسوء تدبير رجع عليه وبالُه ، فرآى أنه لا طاقة له بعساكرنا فأذعن وسأل الأمان ، وسلم الرقة وعصم نفسه وماله وخرج منها بجميع ما ملكه ماخلا ذخائر عدده ورجاله[٤] وفارقناه ومضى لحاله وأحكم السلطان الأمور بها ورتب[٥] أحوالها وجعل فيها بعض الحيام ثم مضى منها متوجها

---

(١) الاضافة من ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٦ .

(٢) وقد سلمها الى الصلاح الدزدار ، الحارس) الموكل بها على مل أخذه منه بناء على رواية ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٦ .

(٣) عرفها ابن عبد الحق فى مراصد الاطلاع ١/٣٨٩ بانها مدينة قديمة قصبة ديار مضر ، وقد زارها الرحالة المسلم ابن جبير قرابة هذا التاريخ الذى تدور حوله هذه الاحداث فوصف جامعها وسورها واسواقها المسقفة كلها بالاخشاب ، راجع أيضا المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، اما الرقة فمن بلاد الجزيرة ، انظر مراصد الاطلاع ٢/٦٦٢ ،
Dussaud: Topographie Historique de la Syrie, pp. 479 et seq.

(٤) كلمة غير مقروءة فى الاصل .

(٥) اكتفى المقريزى : السلوك ١/٧٨ فقال فى شأن حملة صلاح الدين على الرقة « انفصل عن حران الى الرقة فملكها وما حولها » .

إلى عرابان[١] ، فلما قرب منها خرج (٤٤ ب) للقائنا رجالها ونساؤها واستبشروا بقدومنا وخيمنا على ظاهرها ، فوضع السلطان ما كان عليهم من ضرائب المكوس وبذل لهم العدل الواسع والإحسان وأزال ما كان من المكوس أيضا بماكسين وسائر المواضع بالخابور ، ثم قطعنا نهر الخابور على قنطرة الشبتير[٢] ، متوجهين إلى نصيبين[٣] فكان نزولنا عليها بعد ثلاث ليال وقد تحصنت وتمنعت ، فالستائر على أسوارها مصفوفة ، والمنجنيقات على قلعتها مستديرة ، فأشفقنا فى حصرها من سفك الدماء وهتك الحرم ، فوكلنا بها من يمنع من الدخول والخروج ، وسلطنا ناسنا على القلعة ووالها ، فعرف أنه لا محيص له من المحاصرة ، فأرسل بعد أيام فى الاستسلام وطلب أماناً من السلطان ، فتسلمها[٤] منه بما فيها من الذخائر ، وأزلنا ما كان فى البلد من الضرائب والمكوس ، وعوّل السلطان فى ولاية نصيبين على الأمير حسام الدين أبى الهيجاء السمين ، وفى ولاية الخابور على جمال الدين خوشترين .

* * *

ذكر الوصول الى الموصل والنزول عليها

ولما رتب السلطان أمور نصيبين وأحوالها توجه منها بجميع عساكره إلى الموصل فنازلها[٥] من أقطارها بجموع العساكر نوقف هو وجماعة

---

(١) وقد تحذف الالف الاولى فى بعض الاحيان ، وعلى هذه الصورة جاءت فى مراصد الاطلاع ٩٢٧/٢ حيث عرفها بانها « بليدة على الخابور من أرض الجزيرة » اما المقدسى راجع بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٢٧) فقد قال عنها « انها تل حولها بساتين ، والى جنوبها فى نصف الطريق بينها وبين قرقيساء ماكسين ، وكان القطن يكثر فيها » ، انظر ايضا Dussaud : op. cit., pp. 463 et seq.

(٢) كتب هذا الاسم على رسمه الوارد فى الروضتين ٣٢/٢ .

(٣) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام ، وكانت تعرف عند الروم باسم Nisibis انظر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٤ — ١٢٥ والمصادر التى اعتمد عليها فى وصفها فى مختلف العصور .

(٤) أى أنه تسلم منه قلعة نصيبين .

(٥) كانت منازلته اياها يوم الخميس ١١ رجب ٥٧٨ هـ ، راجع ابن واصل : مفرج الكروب ١٢٠/٢ .

حلقته مما يلى باب[١] الروم [محاذى[٢] باب كندة] ، وجعل والدى من جهة الشرق بباب شرقى ، وأخاه تاج الملوك بورى عند باب العمارى فضايق البلد أشد مضايقة : وكان صاحب الموصل حينئذ أتابك عز الدين مسعود بن مودود ونائبه مجاهد الدين قايماز قد تولى حفظ البلد ، وكان قد كاتب[٣] الديوان العزيز واستشفع إلى المواقف المقدسة الناصرة لدين الله باستصلاح شأنه وكان رسول عز الدين ابن أبى الصاحب أستاذ الدار العزيزة يتولى مهامه فحسّن لأمير (٤٥ ا) المؤمنين — ثبت الله دعوته — إنفاذ شيخ الشيوخ بالشفاعة إلى السلطان .

ذكر وصول رسل الخلافة

ووصل إلى السلطان[٤] الخبر بوصول رسل الخلافة وهم : صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير ومعهما من خواص الديوان[٥] جماعة كبيرة

---

(١) لعله يقصد الناحية المواجهة لبلاد الروم ، فقد ورد فى لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٠ — ١٤١ عبارة باب ا لروم فى وصف آمد وذكر — نقلا عن المقدس أن ذلك فى تخوم المسلمين بوجه الروم .

(٢) الاضافة من الكامل لابن الاثير ١٩٧/١١ .

(٣) الوارد فى مفرج الكروب ١٢٢/٢ ان صاحب الموصل سير القاضى بهاء الدين بن شداد رسولا الى الديوان العزيز ، انظر ايضا الروضتين ٣٣/٢ .

(٤) تفيد العبارة الواردة بالمتن ان الافادة الخليفية جاءت الى صلاح الدين من أجل اصلاح الامور بينه وبين صاحب الموصل على أن ابن شداد كان قد انفذه عز الدين مسعود رسولا الى الخليفة سائلا اياه أن يبذل من رأيه لدى صلاح الدين ما يمنعه من الهجوم على الموصل ، الا ان الديوان العزيز لم يقم بعمل جدى يرضى به صاحب الموصل بل اكتفى بان بعث الى شيخ الشيوخ — وكان فى صحبة صلاح الدين — يطلب منه مفاتحته فى الصلح ، ولقد ورد فى مفرج الكروب ١٢٢/٢ قوله على لسان ابن شداد « أتيت بغداد .. مستنجدا بهم فلم يحصل منهم سوى الانفاذ الى صدر الدين شيخ الشيوخ — وكان فى صحبة السلطان — يأمرونه بالحديث فى الصلح » ومن ثم فانه يستدل من قول ابن شداد على أن شيخ الشيوخ كان مع السلطان من قبل ، ومما يؤكد هذه الرواية ما يشير اليه ابن الاثير : الكامل ١٩٨/١١ فى قوله « كان صدر الدين شيخ الشيوخ قد وصل اليه قبل نزوله على الموصل ومعه بشير الخادم .. فى الصلح فاقاما معه على الموصل »

(٥) ممن أشار اليهم المقريزى فى السلوك ٨٢/١ القاضى محيى الدين أبو حامد بن كمال الدين الشهرزورى وبهاء الدين بن شداد .

فتلقاهم السلطان بالرحب والإكرام وأنزلهم قريباً منه ، وشاع فى العسكر وصول شيخ الشيوخ فى الصلح وإطفاء نار الحرب ووصل أيضاً حسن الجاندار رسول مظفر الدين قزل أرسلان [صاحب أذربيجان] فى الشفاعة أيضا ، وقال جماعة من الأمراء والأجناد : « هؤلاء غدا يصطلحون ونحن نحظى بالشقاء والحرمان» . لكونهم لم يطلعوا على حقائق الأمور، والسلطان يصرّح بإباء المصالحة وترك قبول الشفاعة واستفراغ المجهود فى شغل الحَصر والناس يقولون : « هذا لا يستتم ولايدوم » ، وفى كل يوم يناوب القتال، ووالدى الملك المظفر يحمل من جانبه وينازل القوم ، وكذلك تاج الملوك [بورى] أخو السلطان، وشيخ الشيوخ ينهى الناس وينكر عليهم ذلك ويصدّهم عن القتال ، وأتى إلى السلطان وقال : « إنما أتيت إليك مستشفعا فى أمر هؤلاء القوم فاعدلوا عما أنتم عليه حتى أرسل إلى القوم وأنظر ما هم عليه » ، فقال له] السلطان] : « سمعا وطاعة » ؛ فأرسل شيخُ الشيوخ إلى القوم صاحبه[1] فشرعوا[2] يندبون كل يوم رسلهم بالمراسلات الخادعة ، فخرج أول يوم جمال الدين محاسن ومجد الدين الشريف أخو نقيب الطالبيين فحضروا عند شيخ الشيوخ فى خيمته ، وأنفذ [شيخُ الشيوخ] إلى السلطان من عرّفه وصولهم واستدعى منه إنفاذ بعض ثقاته لاستماع كلامهما فتقدّم السلطان إلى الأجلّ الفاضل وإلى الفقيه عيسى أن يحضرا وأن ينهيا إليه ما يسمعانه منهما، فمضيا وحضرا عند شيخ الشيوخ. فأذهبا ذلك اليوم بالكلام الذى لا محصول له ولا فائدة فيه ، ثم قالا : « خلنا (٤٥ب) ونخرج غدا بالأمر المعيَّن » .

فلما كان من الغد خرجوا وطلبوا مطالب كثيرة وأشياء متعدّدة[3] ، واقترحوا إعادة البلاد المأخوذة ، وطال الحديث منهم بما لا فائدة فيه ، وكان غرضهم تمحيض الأوقات. فمكثوا على ذلك قريباً من شهر لا ينتهون

---

(١) يعنى بذلك بشيرا الخادم .

(٢) فى الاصل « فشرع » والمقصود بذلك المواصلة .

(٣) كلمة يمكن قراءتها ايضا « متعدرة » مما يطابق كذلك الخواتيم التى وصلت اليها هذه الرسلية .

إلى أمر مستقر و يقصدون الخدع والختل ، وشيخ الشيوخ يتوهّم من السلطان أنه لا يؤثر الصلح، فلمّا تبيّن السلطان ذلك منه دخل لهم تحت ما أرادوه، واستقر الأمر على أن يردّوا على السلطان حلب[1] ويردّ عليهم جميع ما اقترحوه ، وكان قد تبيّن الأجلّ الفاضل فحوى مقالهم وما هم عليه من الخداع والمحال، فانقطع عن الحضور وتعذّر بعذر ذكره ؛ وكان الفقيه عيسى يحضر لسماع مقالتهم وإنهائها إلى السلطان ، ثم انقطع الفقيه عنهم فوجدوا بذلك مهلة ، فكانوا فى أثناء ذلك يستنجدون ملوك الأطراف ويظهرون الوفاق حتى تبيّن للناس ما عليه من الخلاف ، واستقر أن يدخل شيخ الشيوخ [إلى المواصلة] ليبلُوَ ما عندهم .

• • •

ذكر دخول شيخ الشيوخ الموصل

ولما طال الأمر ولم يتحقق من المواصلة ما هم عليه استقرّ أن يدخل إليه شيخ الشيوخ لإبرام العهد وإحكام العقد ، فدخل إليهم ، فكان عندهم يوماً وليلة، فرآهم متنكّبين عن سلوك النهج وآراءهم مختلفة، فذكر لهم ما قاله رسولهم فأنكروه ، وقالوا بعد كلام طويل : « إن أراد صلاح الدين وِفاقنا فليرحل عنّا ويردّ بلادنا ونحن نخلى بينه وبين حلب ولا يطلب منا مساعدة ، لأن لنا مع عماد الدين زنكى يمينا وعهداً، فإن رضى [صلاح الدين] بهذا وإلا فما سمع الناس ، ولا قلنا » .

وكان قد استقر مع الرسل أنهم يسلمون إلى السلطان حلب ويستعيدون منه البلاد فندموا على ما قدّموه من التقرير، وتبيّن لهم ما كان المواصلة عليه من الحنث (١٤٦ ا) والمخادعة ، فانصرف شيخ الشيوخ من عندهم متوجها إلى بغداد ، فجاءوا إليه وتضرّعوا له وقالوا : « ترجع إليه وتعيد عليه ما سمعته

---

(١) الواقع ان الاتفاق — كما يشير ابن الاثير : الكامل ١٩٨/١١ — لم يتضمن موافقة المواصلة على تنازلهم لصلاح الدين عن حلب وانجادهم صاحبها عليه .

منا ، وتلطّفْ به فى الخطاب » ، فلما اجتمع بالسلطان استعفى من التكلم واستوفى حديثُه ما سمعه من الأقسام ، فقال له [صلاح الدين] « هذه أشهر شراف وقد عزمنا على الرحيل ونهَبُ لوصولك الموصل » ، وكان نزول السلطان عليها فى رجب وعشرة أيام من شعبان .

* * *

ذكر رحيل السلطان الى سنجار [١] وحصارها وفتحها

كان [٢] مَن بسنجار من المواصلة - مدة مقام السلطان حصار الموصل — يقطعون دونه من أراد الوصول إليه ، فأمر السلطان ابن اخيه — والدى الملك المظفر — أن يمضى يحصر سنجار ، فسار بمن معه من العسكر حتى صبح بأرنجان ، فوافاه عسكر مجرد من المواصلة إليها ، فعبى أصحابه ميمنة وميسرة ، وعطف بهم فأحاط بهم [٣] فكبسهم جميعا وأخذ خيولهم وعددهم ، ووكل بهم من ردّهم إلى الموصل رجالة ، واحتبس عنده جماعة من مقدميهم ، وكتب بخبرهم إلى السلطان ، فلما وصله ذلك رحل من الموصل إلى سنجار بجميع عساكره ومعه رسل الخلافة ، ونزل على سنجار بعد ليال فكان نزوله عليها فى العشر الأوسط من شعبان ، فضرب مخيّمه على عيونها ، واقتسمت عساكره المنازل بأقطارها ، وبدأهم بالمراسلة ، وخوّفهم عواقب المخالفة ، فأبوا إلا الجلاد ولجوا فى العناد ، فأمر السلطان بمضايقتهم ، ونصب عليها منجنيقا . واشتد النزال ودخل شهر رمضان فأمر السلطان بالإحجام عنهم والاحتراز من إراقة الدماء ، وكان فى كل يوم يركب للإرهاب ، وهم مع ذلك يبالغون فى التحفظ ، فجاء إلى السلطان ليلة من الليالى مَن أخبره أن الحراس نيام ، فندب

---

(١) انظر مراصد الاطلاع ٧٤٣/٢ ، وفيما يتعلق بالطرق بينها وبين الموصل ونصيبين وامد والرقة انظر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٢) تتشابه هذه العبارة وعبارة ابن الاثير فى الكامل ، ١٩٨/١١ س ١٥ — ١٦ .

(٣) يعنى المواصلة .

إليهم جماعة من أصحابه فقبضوهم (٤٦ ب) جميعا فأصبح الذين بسنجار قد انكسرت شوكتهم وضعف بأسهم، فأنفذ شرف الدين [أمير أميران هندو بن مودود] أخو أتابك [الموصل عز الدين] يطلب أماناً فأجيب إلى ما سأله[١] ، وسيرت إليه هدايا وتحف وعطايا ، وخرج من سنجار [إلى الموصل[٢]] بكوسه وعلمه وأجناده ونعمه وحرمه ، وتسلم السلطان سنجار وقلعتها وخرج إليه أعيانها واستبشروا بقدومه ، وأسقط ماكان بها من المكوس والضرائب ، وجعل فيها والياً : [هو] الأمير سعد الدين[٣] [مسعود] بن [معين الدين] أنر ، وكتب رياستها لأحد بنى يعقوب، وعول[٤] منهم - فى قضائها وتنفيذ أحكامها — على نظام الدين نصر بن المظفر .

* * *

ذكر رحيل السلطان من سنجار وتوجهه الى نصيبين ورجوع شيخ الشيوخ الى بغداد وذلك فى العشر الآخر من شهر رمضان من السنة المذكورة

ولما رتب السلطان الأمور بسنجار أحضر الأمراء وأصحاب المشورة، فأشاروا عليه بالإقامة بمكان يحملهم حتى ينقضى فصل الشتاء ، ومع انقضائه يتوجه بهم حيث يشاء من الأماكن والبلدان، فامتثل ما أمروا به ، ثم نهض

---

(١) يستفاد من كلام ابن الاثير ، الكامل ١٩٨/١١ ، انه بلوم شرف الدين على تسرعه فى الاستسلام لانه « لو قاتل على تلك الناحية لاخرج العسكر الصلاحى عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه عجز » .

(٢) الاضافة من مفرج الكروب ، ١٢٣/٢ .

(٣) هو أخو عصمة خاتون زوجة صلاح الدين التى تزوجها بعد وفاة نور الدين عنها سنة ٥٧٢ هـ ، وقد زوج صلاح الدين اخته لسعد الدين هذا .

(٤) هـــذا الخبر غير وارد فى ابن الاثير ١٩٨/١١ ، ولا فى مفرج الكروب ١٢٣/٢ ، ١٤٢ .

لوداع شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير بعد ما أصحبهما من التحف السنية والهدايا المرضية للمواقف المقدسة الناصر لدين الله صلوات الله عليها ، وكتب على يده[١] كتابا إلى الديوان العزيز بما رأى وشاهد من أحوال المواصلة وما افتعلوه من سوء التدبير والمحال والخداع .

ورحل السلطان إلى نصيبين فحين قدمها شكا أهلها من أبى الهيجاء السمين فأمر بصرفه عنهم واستصحبه معه[٢] ، وجعل بها بعض أمرائه ، وخرج منها متوجها إلى دارا[٣] فتلقاه أميرها صمصام الدين بهرام الأرتقى فأكرمه وأنعم عليه وشرّفه ، ورحل من دارا متوجها إلى حران .

ولما وصلنا إلى حران ضرب السلطان مخيمه فى ظاهرها ، وأقمنا (٤٧ ا) هناك للاستراحة مشتغلين بشكر الله تعالى على نعمه ، فأمر السلطان والدى الملك المظفر بالرجوع إلى حماة بعسكره فرجعنا من هناك ، وأمر جماعة من الأمراء بالرجوع إلى أماكنهم وبلدانهم ، وأقام السلطان بظاهر حران فى خواص أصحابه بقية[٤] شوال وذى القعدة وأياما من ذى الحجة ، فلما رأى المواصلة انفراد السلطان عن أصحابه بحران وتفرقهم عنه فى البلاد حملهم جهلهم على أن اجتمعوا وتحاشدوا ، وقصدوا حربه طلباً لغرّته ووحدته .

ذكر السبب فى ذلك :

لما كان السلطان محاصرا الموصل ووصلت رسل ملوك الأطراف والجوانب إليه شافعين لصاحبها ، وكان فيهم رسول شاه أرمن [صاحب

---

(١) أى على يد شيخ الشيوخ .

(٢) فى الاصل « معهم » ولا يستقيم المعنى تماما بهذه الصورة ، وقد صححت ايضا على ما اورده ابن الاثير : الكامل ، ١٩٨/١١ من ان صلاح الدين استصحب ابا الهيجاء « معه » الى حران بعد صرفه عن سنجار .

(٣) دارا بالقصر بلد بالجزيرة فى نحف جبل ماردين ، بينها وبين نصيبين ، من بلاد الجزيرة ، وهى واقعة على بعد بضعة أميال شرقى دنيسر ، انظر مراصد الاطلاع ٥٠٤/٢ ، لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٦ ، وجدول قدامة فى
Dussaud : Topographie Historique de la Syrie, p. 497

(٤) نص ابن الاثير : الكامل ، ١٩٨/١١ ، على ان وصوله الى حران كان فى أوائل ذى القعدة سنة ٥٧٨ هـ .

خلاط[١] ، فارتحلنا عنها إظهاراً لقبول[٢] الشفاعة الإمامية الناصرة لدين الله وارتحلنا إلى سنجار ، فلما حصرناها وصل سيف الدين بكتمر[٣] — وكان أعز أصحاب شاه أرمن — وبذل للسلطان فى الشفاعة فى سنجار كل ما أمكنه ، واشترط عليه أشياء ماقبلها ، فكلفه السلطان أموراً استقلها ، فنفر طبعه ، وأراد السلطان تشريفه[٤] فلم يوافق على ذلك وقال قولا غليظا ، وسار إلى صاحبه فأغراه إلى أن خرج بجميع عساكره ، وكان شاه أرمن سكمان خال قطب الدين صاحب ماردين ، وقطب الدين إيلغازى بن ألبى بن تمرتاش خال عزالدين أتابك الموصل، فكتب إليه واستدعاه فخرج، فكان اجتماع شاه أرمن وعسكر المواصلة مع صاحبها بحوزم ، وهى ضيعة من ضياع ماردين ، وأتاهم عسكر حلب واليارقية وكانوا جمعا عظيما ، وبلغ السلطان ذلك فلم يكترث به ، وكتب إلى أمرائه العائدين ، فأول من بادر إليه بالوصول والدى الملك المظفر ، وكان وصولنا من حماة إلى حران فى خمسة أيام (٤٧ ب) وقال للسلطان فى ساعة وصوله : «قم بنا إلى القوم» ، فقال له : « إنهم فى كثرة ولا بأس بالاحتراز ، وهذا عشر شريف[٥]» فلم يزل حتى وافقه السلطان على رأيه وسار بمن معه من غير انتظار للعساكر

---

(١) هى من مدن أرمينية واعتبرها ابن عبد الحق البغدادى : مراصد ٤/٤٧٦ قصبة أرمينية الوسطى ، وقد ورد وصفها الجغرافى والعمرانى فى المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٧٧ .

(٢) الواقع ان رواية ابن الاثير : الكامل ، ١١/١٩٧ تختلف فى سبب رفع صلاح الدين الحصار عن الموصل عما هو وارد بالمتن فهو عنده لم يغادرها « لقبول الشفاعة الامامية » بل لان صلاح الدين صادف العنف من المواصلة فى الدفاع ، « ورأى السور والفصيل وقد ملئا من الرجال وليس فيها شرافة الا وعليها رجل يقاتل .. فعلم أنه لا يقدر على أخذه وانه يعود خائبا » فعاد باللائمة على مظفر الدين وناصر الدين بن شيركوه وقال لهما: «غررتمانى واطمعتمانى فى غير مطمع ، ولو قصدت غيره قبله لكان اسهل أخذا بالاسم والهيبة التى حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا منه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا ويشوكتنا » .

(٣) وهو الذى ملك خلاط بعد شاه أرمن ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، ١١/١٩٩ .

(٤) أى يخلع عليه خلعة ويدنيه بصلة .

(٥) يعنى انه العشر الاول من شهر ذى الحجة .

فنزل رأس عين ، فطار خبره إلى القوم فولوا منهزمين يتبع بعضهم بعضا ، وذلك يوم درقة من ذى الحجة ، فرجع شاه أرمن إلى خلاط والمواصلة إلى الموصل ، واعتصم صاحب ماردين بحصنه .

وأما عسكر حلب فإنه لم يقدم على الرجوع إليها ونحن على طريقه فتفرقوا ، فمنهم من مضى إلى الموصل ثم رجع إلى عانة فعبر الفرات وطلب حلب .

وأما السلطان فإنه نزل بحوزم وضرب مخيمه بها ، وكان بها قصر مشيد لصاحب ماردين ، فأقام فيه تاج الملوك [بورى] أخو السلطان برسم النزهة .

* * *

فصل من كتاب الى الديوان العزيز من انشاء الفاضل

« اجتمع المواصلة وشاه أرمن وصاحب ماردين ودولتشاه صاحب أرزن وبدليس وغيرهم على قصد الخادم[1] حين ظنوا أنه تقلل من عسكره وندب إلى الكفار من أمرائه من اكتفى من مغيبه بمحضره ، وقدروا أنه يتم لهم اغتراره ، ويمكنهم عواره ، ويتناصرون عليه قبل أن يجتمع أنصاره ، ونزلوا تحت الجبل ، فلما صح لهم قصدُ الخادم ظنوا أنه واقع بهم ، فأخذوا أعنّة الفرار بقوة ، وذكروا ما فى لقائه من عوائد عندهم مخوفة وعنده مرجوة ، وسار كل فريق على طريق ، بكيد عدو وفعل صديق ، معتقلاً مالا يهتز ولا يعتز ، ومتقلداً مالا يرقى ولا يريق ، وأعدى أنفسهم بجمع ليس له تبشير ، وإن كان ما هو جمع سلامة بل هو جمع تكسير » .

* * *

---

(١) يعنى بذلك نفسه ، أى صلاح الدين .

ذكر مسير السلطان الى امد والنزول عليها

ولما رجع السلطان من الموصل كتب إلى المواقف[1] . . . . . .

... ...

... ...

(٤٨ ا) عليه عوضا عن يده ألف دينار ، فحمل ابن الضحاك إلى الديوان العزيز وترك فى التوكيل ، وعجب الناس من تقدم الخليفة فى حق المتصرّفين بالقطع ، فحكى أبو طالب صاحب باب المراتب عن أستاذ الدار ابن الصاحب أنه سمع من الخليفة أنه قال : « لما كنت أميراً وكان لى إقطاع فى نهر ملك ، وكان هذا أبو الحسن بن الضحاك عاملاً فى نهر ملك نفذ جماعة من أصحابه وأخذ من إقطاعى رجالاً ، فمضى إليه خالص الخادم وخاطبه فى معناهم ، وسأله أن يطلقهم أو يقتصر على البعض فلم يقبل ، فجاء إليه وهو فى دار ابن العطار وكرّر السؤال عليه فقال له :

« والله ما أطلق منهم رجلا واحداً ، وتقول اسيّدك أبى العباس أحمد: الأميرُ إذا صار خليفة يقطع يدى » ولقبّه بكل قبيح .

« فلما صار الأمر إلىّ وكتب صاحب الديوان أنه قبض عليه ، ذكرت هذه الحال وتقدّمت بقطع يده كما كان قد سأل ، فكتب إلىّ هذا الكلب يقول لى : إننى قد قرّرت عليه ألف دينار ، والله لابد أن أقطع يده كما كان قد سأل » ، وبقى ابن الضحاك فى التوكيل إلى أن استوفى ألف دينار ومايقدر أحد أن يسأل فيه .

وحكى أن صاحب الديوان كان له مطبخ وكان لا يطبخ فيه شىء ، بل جميع ما كان يحتاج إليه من عند الناظر ، وكان فى طريق خراسان كاتب يعرف بابن جميل ، فكتب رقعة وعلّقها على باب المطبخ فيها أبيات لمرجل شاعر بنى أبى الجير ومى :

---

(١) هنا تنتهى ورقة ٤٧ ب من المخطوطة ، ويبدو ان بقيتها ضائعة اذ لا رابط بين هذا الكلام وما يليه .

رأيت مضرب شعر فقلتُ : ماذا السوادُ ؟
فقيل مطبخ نصر فقلت : أين الرماد ؟
فقيل لى : فيه بن وكاخ وجـــراد
وليس فيه سوى ذا ومجـــــال يراد

(٤٨ ب) فخرج صاحب الديوان أبو على نصر بن الوكيل راكباً ومعه جماعة وأصحابه ، فرآى الرقعة على باب المطبخ فأخذها وقرأها ، فقال له احد أصحابه : « هذا فعل ابن جميل الكاتب » فقصده وكتب إلى الخليفة فى حقه، وصرفه من خدمته؛ ودخل صاحب الديوان إلى بغداد وهو مريض ، فما مضى عليه إلا أيام قلائل وتوفى ، وكان الخليفة — أدام الله أيامه — كبير الميل إليه والمحبة له . وكان أحسن أرباب الدولة خلقة ، وذكر أن الخليفة لما أنفذ به إلى واسط وأنفذ منها مائة ألف دينار حملا واحدا قال: « إننى أريد أن أجعل هذا — ابن الوكيل — وزيرا فإنه مليح الصورة ، وقد عرف قواعد الديوان » فنقل ذلك إلى أستاذ الدار ابن الصاحب ، فنفذ إلى طريق خراسان من أطمعه . فلما مات كان جماعة ممن كانوا ينبسطون بمجلس أستاذ الدار يهنئونه بموت ابن الوكيل ، فلما مضت أيام قلائل أنفذ أستاذ الدار فأحضر داود الذى كان مشرف ديوان الزمام أيام المستضىء بأمر الله — رضوان الله عليه — وكان قد تصوف وانقطع فى رباط شيخ الشيوخ فأحضره ، واستأذن له بأن يرتّب صاحب ديوان ، فبرز الأمر الشريف بذلك ، وكان لقبه « مجد الدين » فغير لقبه لأن أستاذ الدار كان يلقب بمجد الدين ولقب داود « بكمال الدين » ، ونقل إلى دارٍ فى القرية المعروفة بقصر الخلافة . وكان مالك الدار يعرف بجلال الدين بن جعفر الذى كان صاحب ديوان فى الأيام المستنجدية ، ورُتب عليه مشرفاً صفىّ الدين أبو غالب بن الجلال وكان نصرانيا وأسلم ، وسنذكر قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها أشار أستاذ الدار إلى جماعة من أهل بغداد من العوام بأن يتقولوا[1] إذا ركب ابن زيادة إلى الديوان :

« ياغيث مالى بالغرام يد »

(٤٩ ا) وكانت هذه الأبيات قد ذكرت فى أيام ابن زيادة ، وكان أستاذ الدار بقصره ويريد صرفه من الديوان العزيز، وكان يقبح ذكره ويقصده، فكان ابن زيادة إذا ركب سمع فى السوق ضجة عظيمة من العوام « ياغيث مالى بالغرام يد » ، ليلا كان أو نهاراً .

ثم إن أستاذ الدار حسن للخليفة عزل ابن زيادة والقبض عليه ، فبلغه ذلك فخرج هارباً ، فنزل فى رباط شيخ الشيوخ وسأل أن يتصدق عليه بنفسه وأن يؤذن له بالمضى إلى واســـط ، فأذن له فى ذلك فمضى إلى واسط ولزم داره .

وأحضر أستاذ الدار عز الدين صدقة بن صدقة وأخذ خطه بألف دينار، ورتبه صاحب ديوان موضع ابن زيادة ، وخلع عليه فى الديوان العزيز ، وتقدم أستاذ الدار إلى ابن البخارى النائب أن يوقع إلى ابن فطيرا ناظر الأعمال الواسطية أن يعترض أملاك ابن زيادة ويضيق عليه ويقصد تقبيح ذكره ، وكان سبب ذلك علمهم بحسن رأى الخليفة فيه ، وكان أوحد الزمان فى الكتابة والتراسل لا تلد النساء قبله ، وكان محسوداً لفضائله ، وأقام بواسط على نهاية من الضر حتى تناهت به الحاجة ، حتى نقل عنه أنه كان ينسخ بأجرة .

* * *

وفيها ضرب سكلية بن إيلاجك أمير البصرة دراهم صغاراً وسماها ايلاجكية ، كان ذلك بعد موت أبيه إيلاجك بسنة ، ثم إن ابن فطيرا ضمن

---

(١) « يتقولون » فى الاصل .

البلاد البصرية على أن يكون ابن ايلاجك شحنة لخسب ، وكان ابن ايلاجك المذكور على غاية من البخل والشح ، ثم لم تزل أموره تتناقص إلى أن صرف من البصرة وأصعد إلى بغداد ، فلما وصل إلى بغداد أنعم الخليفة عليه بالرازان .

* * *

وفيها تقدم الخليفة بإحضار طغرل الخاص — وكان أكبر مملوك رومى — بين يديه إلى الديوان العزيز ، وأن يخلع عليه قباء أسود وعمامة سوداء ، وأخرجت له من (٤٩ ب) الدار معممة ، وأعطى فرساً وسيفاً ، وخوطب « بعماد الدين » ، وأقطع البصرة ، وجعل فى خدمته خمس مائة مملوك وكبر أمره وذكر عن ابن الأنبارى — كاتب الإنشاء — أنه سمع من أستاذ الدار ابن الصاحب يقول : « قال الخليفة ما لأحد علينا فى هذه الدولة حق إلا لهذا — طغرل — الذى قد أعطيناه البصرة » ، وكان الخليفة يعلن بهذا القول ويكرره ، وسبب ذلك أن طغرل كان يمضى إلى الأمراء فى السر ويستحلفهم للخليفة ، وقد ألبس منهم جماعة ثياب النساء وأدخلهم إلى الخليفة قبل ولايته وهو أمير[1] ، منهم الشطرنجى وقيطرمش الشحنة وسيف الدين طغلو وجماعة من المماليك .

* * *

وفيها التجأ جمال الدين بن الحصين إلى رباط شيخ الشيوخ خوفاً من آل تنبه الشطرنجى صاحب واسط لأنه كان قد ضمن منه الأعمال الواسطية ، وحضر عنده جماعة من أهل واسط يتألمون منه ويذكرون أنه قد خرب الأعمال ، وقد أخذ جملة من الأموال للرعايا ، فكثر غضب الشطرنجى عليه لذلك ، وكان قد عمل ضمانه وانكسر عليه عشرون ألف دينار .

---

(١) يعنى بذلك الخليفة نفسه قبل توليه الخلافة .

وأما صدر الدين شيخ الشيوخ فإنه خاطب الخليفة فى معنى ابن الحصين فقال : « ماله معنا شغل ، بينه و بين خصمه الشرع » ، فتحقق ابن الحصين أنه لا منجى له من الشطرنجى، وكان(١) ذا سطوة وشدة وأكثر الناس قساوة وأشدهم تجبرا، وكان مع ذلك كريما جواداً ، وكان معطاء لاسيما إذا شرب، فلما شاهد ابن الحصين هذه الأحوال لم يجد بداً من الهرب إلى الشام والاعتصام بجناب الملك الناصر صلاح الدين .

وفيها تقدم الخليفة بنقل عماد الدين إلى البدرية ، فلما انتقل وسكن بها كان الخليفة لا يزال (٥٠ ا) معه إن خرج أو دخل ولا يفارقه فى سائر الأوقات.

وفيها كثر الخليفة — أدام الله أيامه — ليلا يمشى فى الأسواق ومعه جماعة، منهم نجاح الشرابى وأبو الحسن بن الكرخى وأبو العز ومحمد بن يحيى الفراش ، وكان يمضى متنكرا مرة فى زى العجم ومرة فى زى الترك ومرة فى زى الفقهاء ، وكان يعتقد أن أمره يخفى على أهل بغداد ، وكان لا يخفى مكانه للذين معه لأنهم كانوا معروفين عند الناس ، فكان كالعلم إذا اجتاز فى موضع عُرف بمن هم معه ، فكان الناس يلحون بالنظر إليه ويقفون أثره ويمضون خلفه ، ورأى أن السكوت عنهم يوجب تكدير الوقت ، وخاف على نفسه فأطلق القتل فى كل من يتوهم أنه ينظر إليه أو يقصد أن يمضى فى طريقه إلى أن انحسمت المادة ، فكان أهل بغداد إذا غلب على ظنونهم أنه فى طريق هربوا عنها الى أخرى ، وإذا صادفه أحد فى طريق ورآه بغير اختياره كاد أن يهلك من شدة الخوف ؛ وإن استغاث إليه أحد وهو فى الصيد فإن خاطبه « بمولانا » أو دعى له وعرف أنه قد عرفه ما يخلو أمره من [أحد] أمرين : إما أن يقتله أو يعرض عنه؛ ولا يقضى له حاجة ليزيل من قلبه أنه أمير المؤمنين ، إلى أن هرب الناس كافة وهان عنده سفك الدم .

* * *

(١) يعنى بذلك الشطرنجى .

وفيها ظهر ببغداد التشيع والإعلان بولاء أهل البيت عليهم السلام ، وكان أستاذ الدار ابن الصاحب معروفاً بذلك [هو] وبيته يرثه عن آبائه ، وأعلن بالتظاهر بلعنه معاوية ويزيد، بحيث أن رضى الدين القزوينى[1] ـ مدرس النظامية ـ كان إذا جلس بمدرسة النظامية مجلس الوعظ يسؤل عن ذلك فلا يرد جواباً ، فقام إليه رجل فى بعض الأيام وهو يعظ الناس وسأله أن يلعن يزيد فلم يفعل ، فثار الناس عليه فى المجلس (٥٠ ب) وهمّوا بقتله ، وقام جماعة من أهل بغداد وفى أيديهم العصى ورجفوا إلى المنبر ، واتصل ذلك بحاجب الباب ابن صدقة فأنفذ نائبه عطاف بن بختيار ومعه جماعة فمنعوا الناس من الفتنة ، وحملوا الشيخ رضى الدين القزوينى المدرس إلى بيت من بيوت الفقهاء مما يلى خزانة الكتب التى بالمدرسة المذكورة وغلقوا عليه الباب ووقف النائب والجماعة والذين معه إلى أن جاء الليل وأخرجوه إلى داره ، وسكنت تلك الغوغاء ومنع الناس من أذيته .

ثم تقدم إلى رضى الدين القزوينى أن يجلس بباب بدر ويكون الخليفة هناك، فجلس وكان ذلك اليوم يوم السبت، وقام إليه جماعة وكلّفوه بأن يلعن يزيد بن معاوية، وكان معه ولده الملقّب بالرفيع، فأشار إليه بلعن يزيد فصرّح بسبّه ولم يسمع أباه شيئاً[2] ، وكان الموضع فيه جماعة من مماليك الخليفة فلم يقدر أحد من الناس أن يتعرّض بنفسه بل سكت الناس، ورأى رضى الدين القزوينى أن هذه الحال لا مندوحة لأهل بغداد عنها ، وأنه لا يقدر على المقام دون التظاهر بسب يزيد ، وأنه متى فعل ذلك هلك جميع من يتعلق به بقزوين وأخذت أمواله وأملاكه ، فمضت عليه أشهر وطلب الإذن بالمضى إلى بلده لينظر أهله ، فاستأذن له فى ذلك أستاذ الدار ابن الصاحب فأذن له من شدة بغضهم له، وأنفذوه فى رسالة فى طريقه إلى قزل رسلان، فمضى وأسرع

---

(١) هو الامام المفسر الفقيه احمد بن اسماعيل بن يوسف القزوينى ، المتوفى سنة ٥٩٠ هـ . انظر النجوم ، ٦/١٣٤ .

(٢) عبارة غير مقروءة فى الاصل واضطراب الناسخ فى صحة العبارة من ناحية النحو يؤيد المعنى غموضا .

فى الخروج ، فعند ذلك ندم الخليفة لخروجه، وعلموا بعد ذلك أنه لم يخرج إلا المذهب ، وخشوا من التشنيع عليهم فى البلاد .

فلما وصل إلى قزل وبلغه رسالة الديوان العزيز قال له :

« أنفذ أنت الجواب فإننى غير راجع إلى بغداد ، وإننى قد شاهدت الموت الأحمر » ، وتوجه إلى قزوين ، فكان الناس فى تلك الخطة بأسرها من الملوك وغيرهم يقصدون رضى الدين القزوينى يتبركون به ويهنئونه بسلامته

وبقيت النظامية خالية (١٥١) من مدرس ، وفيها جماعة من المعيدين والفقهاء يذكرون الدروس ويقرءون الربعة فى كل يوم، وهم يعتقدون أن رضى الدين يرجع . إلى أن وقع الأياس منه .

وكان الفقيه التوقانى يعتقد أنه ربما أنعم عليه بالنظامية ، وكان كثير الخطاب والقول والاستشفاع بالناس من أرباب الدولة لأجلها ، وكان مستحقا للتدريس والتصدر بمجلسها ، غير أن الأمور بيد الله تعالى ، جارية بتقديره .

* * *

وفيها استأذن شهاب الدين الفقيه الطوسى فى الحج فأذن له فخرج من بغداد ومضى إلى مصر . وكان قد جعل الحج حجة لخروجه . ولو عُرف منه ذلك لما مكّن من الخروج ، ولم يؤذن من بعده لأحد فى المضىّ إلى الحج إلا إذا علموا عوده إلى العراق ، وكانت معه ابنة الثقفى وماتت ، وأخذ جميع ما كان لها ، وسبب ذلك أن أستاذ الدار ابن الصاحب كان يبعضه ويقصده، ولو بقى فى العراق لهلك[1] لأنه كان صاحب ابن العطار،

(١) فى الاصل « هلك » .

وكان قد حضر ذات يوم فى دار أستاذ الدار وقيل له إن على بن أبى طالب عليه السلام مامك من الدنيا شيئاً وكان فقيراً حتى إنه كان يأكل خبز الشعير فقال له الطوسى :

« هذا ما يقوله إلا من لايعرف ، وإلا على قد نقل عنه أنه أدّى زكاة أربعين ألف دينار ، وكان كثير المال وله نعمه ، وإنما المبغضون له يقولون هذا » ، فقال له أستاذ الدار : « فكيف مدح على بإيثاره بخبز الشعير وبصدقته بالخاتم ؟ » فقال : « هذا كان فى ابتداء حاله وإلا بعد ذلك ملك وصار له » فقال له أستاذ الدار : « أريد أقف على هذا النقل من قاله وعمن ينقله » ، فقال له سمنديار الواعظ . « إن هذا ما سُمع » ، فقال ابن الطوسى : « يجوز أنك أنت ما سمعته » ، وطولب [ابن الطوسى] بإحضار الحجة ، فخرج حينئذ وهو يعتقد أنه يبرهن عن شىء له فيه مصلحة .

فلما خرج عرف أنه قد خاطر بدمه وأن هذه تكون من أعظم الحجج عليه، فادعى أنه قد مرض وبقى أياما (٥١ ب) وأنساهم هذه الحال ، فأنكر على أستاذ الدار كيف سمع منه هذا وسكت ، وكيف ما كلفه أن يحضر الحجة فيما ذكره عن أمير المؤمنين على عليه السلام ، وصار الأمر أكثر من أن يوصف، وصار الناس يتقولون بالأخبار عن أهل البيت عليهم السلام ويذكرون أشياء من أمور الصحابة مالا يفيد ذكره لو ذكرناه ، حتى نقل عن ابن الجوزى الواعظ [أنه] قال: « ما أكثر ما يسألون الناس عن معاوية ويزيد ويكلفونى شرح أحوالهم ، ما يكتفون منى فى هذه الأيام أننى أرجم لهم أبا بكر وعمر وأنا مخاطر » ؛ وكان الناس فى يوم عاشوراء يهجرون الأسواق ويعلنون بالنوح على أهل البيت عليهم السلام والإنشاد، لا سيما فى ناحية المختارة ومحلة الكرخ ، وهذا غلط من ابن المارستانية ، وكانت واقعته فى سنة ثلاث وثمانين سنذكرها إن شاء الله تعالى .

* * *

وفيها بذل مسعود بن جابر – الذى كان خازن المخزن وحاجبا بين يدى ابن العطار – عشرة آلاف دينار ليكون صاحب المخزن المعمور، وكان أستاذ الدار قد تغير على ابن شبيب صاحب المخزن، فتقدم بالقبض على ابن شبيب والتوكيل به فى داره، وترتيب مسعود بن جابر صاحب المخزن، ولقب فخر الدين، وتقدم إليه أن يسكن فى دار ابن العطار التى [هى] مقابلة لباب الحرم الشريف، وخلع عليه فى دار أستاذ الدار، والمشرف عليه ابن رزين، وكان يومئذ وكيل الخدمة الشريفة يشهد عليه فى بيع الأملاك وشرائها، ويُستأذن فى تزويج المماليك الخواص، ويشهد عليه فى العتق: كل ذلك عن الخدمة الشريفة النبوية الإمامية الناصرة لدين الله تعالى.

* * *

وفيها مات الأمير أبو منصور أخو الناصر لدين الله وغسّله العدل بن الحرانى وأخذ سلبه يحيى الفراش، فكان من جملة ما أخذ منه أثاث وقماش وفضة يساوى عشرة ألف دينار، وكان من جملة ذلك (١٥٢) مسند زركش وطراحة زركش بألف دينار وجميع ما استعمل فى غسله من طاسة فضة وطست فضة وغير ذلك، وكان يوم موته يوما مشهوداً عظيما، ولم يتأخر أحد من أرباب الدولة وغيرهم من كبار أهل بغداد إلا وحضر إلى الدار العزيزة.

وكانت أيضا ماتت العباسة إحدى جهات المستضىء بأمر الله وخلفت أموالا كثيرة، وبيع ما كان لها من جهاز وأثاث بديوان الأبنية، وأخرج لها ثوب كبير الأكمام بلؤلؤ كبار وقبقاب أيضا عليه لؤلؤ ومداس لؤلؤ، وكان المتولى لهذه الأموال أستاذ الدار ابن الصاحب لم يشاركه أحد فى ذلك سوى يحيى الفراش، فيأخذ [ابن الصاحب] ما يريد ويعطى ليحيى ما يريد والخليفة مشغول بمتنزهاته وصيده، وكان ابن يونس أبو المظفر هبة الله نائب أستاذ الدار [ابن الصاحب] فى ديوان الأبنية، وجميع هذه الحال يعلمها

وهو يكتبها عنده، ويعدّه لوقت الحاجة ويجعله طريقا إلى قتل أستاذ الدار، وأستاذ الدار لا يعلم بذلك .

* * *

وفيها تقدم أستاذ الدار ابن الصاحب إلى قاضى القضاة ابن الدامغانى أن يطالب عماد الدين بن رئيس الرؤساء بمال إخوته الأيتام ، فطالبه وأحضره وحبسه ، ثم سأل [العمادُ] أن يُنظر مدة شهرين إلى أن يحصل المال ، وكان أستاذ الدار العزيزة يريد هلاكه ، فنفذ إليه ابن البخارى نائب الوزارة ابن التعاويذى الشاعر وكان يومئذ ينوب عن ابن البخارى فى إقطاعه وهو صاحبه قبل الولاية ؛ وكان ابن التعاويذى غلام بيت رئيس الرؤساء وشاعرهم وبهم عُرِف ، وقال له : « قل لعماد الدين يقول لك ابن البخارى خذ لنفسك، وأبصر لأمرك، فأنت هالك. فإن أستاذ الدار ما قصده إلا نفسك وقد جعل المطالعة بمال الأيتام طريقاً إلى إتلاف نفسك ، وقد نصحتك » .

فاعتقد عماد الدين بن رئيس الرؤساء أن ابن البخارى (٥٢ب) قد نصحه بذلك ولم يكن ذلك نصحاً ، بل نفذ أستاذ الدار إلى ابن البخارى وقال له : « راسل عماد الدين بكذا وكذا بحيث يهرب إلى جهة من الجهات ، ويعرف الخليفة أنهم ما يقدرون يرون زمانا هو فيه خليفة ، وأنه متى هرب واحد منهم انقلع البيت[1] جميعه .

وأن ابن رئيس الرؤساء أخذ هذا الكلام بظاهره ورآه نصحاً فخرج على وجهه هاربا وعليه صدرة خام وتحته أتان ، وفى رجليه نعلان من صوف، ومعه رجل صوفى يخدمه ، ولم يعلم به أحد حتى صار فى بلاد الشام ، واعتصم بالملك الناصر صلاح الدين .

* * *

(١) يعنى بذلك البيت العباسي .

وفيها هرب جمال الدين خشترين من الموصل وجاء إلى بغداد ومعه حدود ثلاثمائة فارس ببرك جميل وتجمل زائد، فوقف عند الكشك الجديد عند ظاهر السور، ونفذ صاحباً له يطلب رجلا متفقها من أهل حماة كان يلوذ فى تلك الأيام بأستاذ الدار ابن الصاحب ، فلما جاء إليه عرّفه « أن جمال الدين خشترين قد هرب من أهل الموصل وقد التجأ بالعتبة الشريفة النبوية وهو يطلبك » ، فقال الحموى : « ما أقدر أمضى معك إلا بإذن من أستاذ الدار » فقال له : «افعل» ، ومضى وعرّفه وصول المذكور واستأذنه فى الخروج إليه ، فخرج إليه .

فلما رأى المذكور ترجل له ، وترجل له خشترين وسلم عليه وسأله كيف كان الموجب ، فقال : « إننى كنت فى السنة الخالية — يعنى سنة ثمان وسبعين — قد وصلت إلى بغداد فى خدمة أتابك صاحب الموصل لما توجهت إلى الحج ومعى جماعة من الأمراء ، وكنت كثير الاجتماع بك ، وكتب الأمراء الذين كانوا معى إلى الموصل يقولون لمجاهد الدين الخادم الذى فى الموصل أن خشترين قد قرر أمره فى بغداد . وأن الواسطة بينه وبين أستاذ الدار رجل من أهل حماة ، فأرادوا القبض على وأخذ مالى فهربت منه ، وقد (٣ ، ١) أتيت إلى هاهنا على عزم الخدمة بالديوان العزيز » . فمضى الحموى إلى أستاذ الدار وعرفه بهذه الحال ، فتقدم أستاذ الدار إلى الحموى بأن يمضى إلى خشترين ويقول له : « قد رسم أن تضرب خيمك ظاهر سور بغداد على شاطىء دجلة حتى يعين لك موضع ، ونستأذن الخليفة فى معناك » ، فأنزل عند[1] جامع السلطان ظاهر السور ، وتقدم لحمل إقامة كبيرة إليه فحملت على يد الحموى .

فلما مضى ثلاثة أيام سأل خشترين أن يدخل البلد وأن يقبل الأرض بباب النوبى وأن يدخل إلى الديوان العزيز ، فأخرج إليه الحاجب على صاحب

---

(١) فى الاصل « عن » .

شمس الدين الركاب سلار صاحب الخليفة والمتولى لديوان البريد وحديث من يصل من الجوانب، فقال له الصاحب مجد الدين: « أستاذ يسلم عليك ويقول قد أذن لك أن تحضر إلى الديوان فى غداة غد ، وأمّا تقبيل العتبة الشريفة فما لك بذلك حاجة، لأن الرسل يقبّلون الباب الشريف نيابة عن مرسلهم ، [و] أنت عمن تقبل هذه العتبة ؟ قد أعفيناك عن هذا » ، ثم مضى من عنده وأصبح فى ذلك اليوم الذى تقدم إليه فيه أن يحضر ولبس قباء أحمر بياولى نسيج من ثياب أتابك صاحب الموصل ، وركب معه جماعته بالأعلام المنشورة والبيارق ومعه خادمان ، ودخل فى جماعة ومعه الحموى إلى الديوان العزيز ، وفيه النائب ابن البخارى .

فلما وصل إلى الديوان ودخل تقدّم إليه «أن اجلس على طرف الإيوان الذى فيه مسند الوزارة ساعة». ثم أذن له بالدخول إلى نائب الوزارة، فقام ودخل إلى الستر الأول فمنع جميع من كان معه، ودخل هو والحموى فحسب ، وكان النائب جالساً فى الديوان فى حجرة الصلاة التى على باب بيت الجيش وعنده صاحب الحجاب شمس الدين بن جعفر ، فجـــذبه جمال الدين بيده إلى الأرض ثلاث مرات ، فلما قارب أن يصعدوا للصفة قال له النائب: « مرحبا بجمال (٥٣ب) الدين » ، وتحرّك إليه فتحول ، وجلس جمال الدين خشترين فقال له النائب : « كيف كنت فى هذه الحركة ؟ » فقام وخدم ، فقال له : « طب نفسا»، ثم أخلاله المجلس ولم يبق معه سواه فحسب، وخرج الحموى مع الجماعة ثم قال له : « مايريد الأمير ؟ » فذكر له حاله مع أهل الموصل وأنهم[1] أرادوا قبضه ، « ولم يكن السبب إلا محبتى للديوان العزيز مجده الله تعالى » .

فقال له النائب : « هذا قد عرفناه ؟ نريد أن تعرفنا كم كان لك عند صلاح الدين ؟ ولم فارقته ؟ ، وكيف تريد تكون عندنا بحيث نطالع

---

(١) فى الاصل « وانه » .

الخليفة — خلد الله ملكه ، ومهما تقدم به[1] عمل» ، فقال له خشترين: « لما كنت مع صلاح الدين كان لى عنده إقطاع بمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار صورية » ، فقال له ابن البخارى : « أيتم أو يصح » فقال له : « يصح أكثر من هذا الاعتداد » فقال له : « يا أمير لأى سبب فارقت هذ الحال ، هذا مبلغ كبير؟» ، فقال: « غضبت وسببه أننى طلبت منه موضعا ما أعطانى ، فحلفت أننى لا أخدم معه وأنا ما أريد من الخليفة هذا بل ينعم ويتقدم إلىّ أن أمنع خفاجة من هذه الديار، وآخذ ما تأخذونه، وأحمل إلى الديوان منه والباقى آخذه أنا وجماعتى ، وما أريد أن أقول كنت ولا كان لى ، والإنسان ابن ساعته، وأنا الساعة قد جئت » فقال له النائب : « هذا القدر كبير ، ها هنا مماليك الخليفة أرزاقهم مقررة بقدر حاجتهم حتى إننا نعطيهم من المخزن الخبز واللحم وثياب الصيف والشتاء بقدر ما يحتاجون إليه من النفقة ، وهذا القدر ما يمكن أن يعطى لأحد عندنا ، ولو أن جمال الدين قد رُبّى عندنا ما كنا نجد بحقه لصلاح الدين أكثر من أن يحمله إليه يجاهد الكفار ، ومع هذا طيّب نفسك . نذكر هذا كله للخليفة ومهما تقدم به عرّفتك (١٥٤) على لسان الحموى ، قم الله معك » .

فقام ولم يتحرك له .

فلما خرج قال للحموى : « أما رأيت إلى هذه الأفعال ؟ نجىء إلى صاحب عمامة لا يقوم لنا ؟ » فقال : « هذا نائب الخلافة لا يقدر يقوم لأحد إلا بإذن ، فلا تغضب من هذا ولا تتحدث به » ، ثم خرج من الديوان وأتى إلى دار أستاذ الدار فجلس على بابه ساعة ، ثم خرج الحاجب أبو الرضا فاستدعاه ، فدخل هو والحموى ، فقام أستاذ الدار قائما واعتنقه وقال له : « كيف بت وقلبى إليك وإلى تعبك ؟ » فقال له : « يامولانا قد ضاق صدرى من النائب وقد قال لى ما يُتْحَف صلاح الدين بأكثر منك » فقال له : « لا تقف عند هذا ، لو أنك عند صلاح الدين

---

(١) أى أمر به الخليفة .

نفذنا أخذناك منه ، أنت قد جئت إلى بلدك ودارك فلا تقف مع هذا القول » ، ثم أمره بالرجوع إلى مخيمه وقال . « أنا أكفيك المؤونة فى هذا كله » ، فخرج وهو فرحان طيب القلب من قول أستاذ الدار ، واغتّ بقوله وكلامه كما قال الحريرى : « هذا كلام كالصهباء وفعل كالحصباء » ، وأتى خشترين إلى مخيمه وهو كبير الفرح والسرور بقول أستاذ الدار ، فلم يزل فى مخيمه أياماً ولا يرى لذلك القول فائدة ولا ثمرة ، ولم يخاطب له بقليل وكثير .

ولما كان بعد أيام نفّذ أستاذ الدار إلى الحموى أحضره بين يديه وأحضر الحاجب عليّا صاحب الركاب سلاّر صاحب ديوان البريد وقال له : « تمضى أنت وهذا وتقولان لهذا الكردى أنت تعرف إشفاقى عليك، وأننى أريد مصلحتك، وأننى قد رأيت لك من المصلحة أن نكتب معك مكتوباً عن الخليفة يكون مضمونه أنّا سألناه[1] أن يخدم الديوان العزيز فلم يفعل وطلب العود إليك[2] والشفاعة فى حقه ، وقد تقدّم الخليفة بأن تشرّف وينعم عليك» ، فمضى الحموى والحاجب علىّ إلى عند خشترين وعرّفاه بقول أستاذ الدار ، فضاق صدره لذلك وقال : « مبارك » .

فلما مضى الحاجب [٥٤ ب] علىّ قال خشترين للحموى : ما أريد منهم كتاباً[3] ولا شفاعة إلى صلاح الدين ، [إنّ] أحبّ ما إليه أن أعود إلى خدمته ، ولكن أريد أن تمضى إلى أستاذ الدار وتقول له : « ينعم علىّ ويسأل الخليفة أن يقبل هديتى حتّى أقدّم له قميص زرد وثياباً وخيلاً وخادمين » ، وذكر أشياء .

فمضى وعرّف أستاذ الدار ذلك، فكتب بذلك إلى الخليفة فكتب[4] إلى أستاذ الدار يقول له : « هذا رجل غريب وضيف مايجوز أن تثقل عليه فلا تقبل منه شيئاً » ، فمضى الحموىَ وعرّف خشترين ذلك فقال : « مبارك، أنا أبذل خمسة ألف دينار وأن ينعم علىّ بخلعة سوداء وعمامة سوداء، وأن ينعم علىّ

---

(١) أى خشترين .
(٢) أى الى صلاح الدين .
(٣) فى الاصل « كتاب » .
(٤) أى الخليفة .

بكوسات » ، فمضى الحموى وذكر ذلك لأستاذ الدار فضحك وقال : « تقول له إن الذى تريد أن تمضى إليه و يُشفع إليه فى حقك إذا رأى أن قد أعطيناك مثل ما أعطيناه ما يطيب له ذلك » ثم قال للحموى : « أنكر عليه هذه الحالة وعرّفه الواجب »

فمضى الحموى وعرّفه الحال فجعل يوبّخ نفسه ويلومها كيف أتى إلى بغداد وقال : « ما أقدر أرجع إلى الموصل وهذه طريق لا أعرفها » ، فقال الحموى: تطلب من أستاذ الدار أن ينفذ معك جماعة من خفاجة يعرّفونك الطريق ويمضون معك إلى البلاد الشامية » ، فقال له : « حبا وكرامة » ، فمضى الحموى إلى أستاذ الدار وعرّفه الحال ، ثم نفذ بعد أيام إليه بالحاجب على صاحب شمس الدين الركاب سلار ، ومعه حاجب من حجاب الديوان العزيز يعرف بتاج الدولة بن أبى حرب ومعهما كتاب مختوم لا يعلم ما فيه ، سوى أنهما قالا «إنه شفاعة من الديوان العزيز إلى صلاح الدين فى حقّك فقم وقبّل الأرض» ، فقام وقبّل الأرض ثم قال له الحاجب : « خذ هذا الكتاب وقبّله واتركه على رأسك » ففعل .

ثم أخرج له من خرقة قباءً [٥٥ ا] أطلس أحمر وقلنسوة زركش، فقام ولبسهما ، ثم أعطوه نفقة مبلغها مائة دينار ، وخمس خلع لأصحابه وقيل له : « هذا برسم نفقة الطريق ، وقد تقدّمنا إلى ثلاثة[1] أمراء من خفاجة يمضون فى خدمتك إلى موضع تختار ، وتكتب معهم تعرّفنا إلى أين وصلوا معك» ؛ ثم أمر له بسفن عبر بها إلى الجانب الغربى فأقام أياماً ، ثم جاءت الأمراء من خفاجة ورحل من بغداد على طريق البريّة ، وكان حيث وصل إلى بغداد معه طير يسمى الزاع وهو الغراب الصغير ، وكان خشترين إذا مدّ الطبق ينزل هذا الطير من رأس الخيمة ، وكان قد ربّاه خشترين وألفه ، فكان معهم يطير على رءوس الأجناد ، وإذا تعب نزل على بعض الجمال .

---

(١) فى الاصل « ثلث » .

فلما توجّه إلى الشام ومعه أمراء خفاجة أوصلوه قريباً من حمص وفارقوه بعد ما خلع عليهم وأكرمهم ، وسألوه أن يعطيهم الغراب فأعطاهم إياه، فجعلوه فى قفص ، فلما رجعوا إلى جهة العراق طار الطائر من القفص ومضى ، فلما وصل خشترين إلى ثنيّة[1] العُقاب ما أحسّ إلا والطائر قد سقط عليه ونزل على بعض جمال الرحل ، فتعجب من ذلك ، وكتب بهذه الحال إلى الحموى فأعرض[2] كتابه على أستاذ الدار ، فتعجّب من ذلك .

وفيها مات فخر الدولة بن المطلب ، وكان رجلاً صالحا أوحد زمانه ، وكان مع ذلك زاهداً كثير العبادة ، وكان يعتكف نصف السنة لا يخرج إلى أحد ولا يجتمع بأحد ، وكان كثير المال والأملاك والضياع ، وعمّر مدرسته المعروفة بدار الذهب وسلمها إلى جمال الدين بن فضلان الشافعى ، وأوقف عليها وقفاً حرراً ما يكون محصوله فى كل سنة ألفا وخمسمائة دينار إمامية ، وعمر رباطاً للصوفية مجاوراً لمدرسته ، وأوقف عليه جملة كثيرة ، (٥ دب) وعمّر جامعاً كبيراً فى الجانب الغربى من مدينة السلام وغرم عليه حدوداً من ثلاثين ألف دينار ، وأوقف عليه وقوفاً كبيرة ، وجعل الولاية والوصية إلى جلال الدين بن البخارى نائب الوزارة ، وأوقف عدة نواحى وبساتين على ابنته ولم يكن له ولد سواها ، وشرط عليها إن تزوجت لا تستحق شيئاً من هذا الوقف ، وأكد الوصية إلى نائب الوزارة بذلك ، وحمل إلى جامع القصر ، وتقدم الخليفة بفتحه له لأن جامع القصر لا يفتح لميت إلا بإذن شريف ، وحضر جميع أرباب الدولة ونائب الوزارة وأستاذ الدار إلى المقصورة الشريفة التى يصلى فيها الوزير ، وكان أستاذ الدار واقفاً فوقاً

---

(١) عرفها ياقوت : معجم البلدان ٩٣٦/١ بأنها واقعة فى الطريق الواصل بين دمشق وحمص ، أما ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ٣٠١/١ فقد ذكر ناحيتين بهذا الاسم احداهما مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد الى دمشق من حمص ، واخرى قرب المصيصة ، انظر ايضا : Dussaud: Topographie Hist. de la Syrie, p. 277. حيث يذكر المحطات الواقعة على الطريق بين دمشق وحمص .

(٢) اى عرض .

من النائب، وهذه الحال لم تكن لأحد ممن تقدم من أستاذية الدار أن يترفع على نائب وزارة إلا هذا . لكون المذكور كان غلامه واختياره ونائبه ، وصلى عليه الشيخ أبو طالب [المبارك صاحب] ابن الخل وحمل إلى الجانب الغربي من بغداد، ودفن في جامعه على الطريق من وراء شباك الجامع المذكور .

وكان الناس ببغداد يتأسفون عليه شاكرين لطريقته وحسن سيرته وإعراضه عن الدنيا بعد أن أقبلت عليه لأنه كاف أن يكون وزيراً مراراً، وكان رحمه الله حسن الاعتقاد ، كبير الإمدادات لأرباب البيوتات ، وكان كبير . . . . . [1] والخشونة في الخطاب لأرباب الدولة حتى إنه حكي عنه أنه كان عنده يوماً وقد دخل إليه نقيب النقباء على الهاشميين يقال له « ابن الروال » ، وكان يلقب بأمين الدين ، فعثر في ثوبه . فقال له فخر الدولة : « أرض داري تأبى أن تدوسها أو تجيء إليها، وأنت ما تنقطع » : وكان يعرف ذلك منه ويحتمله .

وذكر أيضاً أنه كان عنده وقد حضر زعيم الدين بن الناقد وهو حينئذ ناظر الخاص ، وكان قبل ذلك حاجب الباب ، فسلم عليه وأخذ يشكو من الوقت (٥٦ ا) وضيقته فقال له :

« والله لو أن الخيوط التي في رأسك تُعمل سلسلة في الجسر لبقي ألفي سنة من شدة حماقتك ، وإلا لو بعت هذا المقيار الذهب والثياب الذي عليك والمماليك والخيل ولبست جبة صوف وقنعت وأزلت هذا الحمق عنك ما كنت تحتاج إلى هذه الشكوى ، ولكن دخان المشاعل ورائحة الشمع إذا تعلق بأم الدماغ لا يزيله إلا ما تعلم » ، وكان هذا بمحضر من جماعة .

وكان ابن الناقد هذا زعيم الدين ذا منزلة عظيمة وصار صاحب مخزن ،

---

(١) فراغ في المخطوطة بقدر كلمتين .

وولده هو الموجود شرف الدين [و] هو صاحب المخزن يومئذ، وما كان يقدر أحد من أرباب الدولة ولا غيرهم يقول له هذا القول من شدة تكبره على أهل بغداد، وكان يقول فى فخر الدولة أضعاف هذا ولا يثقل عليه.

وكان فخر الدولة مقبول القول ذا حرمة عظيمة، وكان الخليفة — أدام الله ظله — يقعده بين يديه ويحدثه ولا يجلس عنده أحد، وكان يكتب على رأس رقعته إليه « الخادم الداعى »، ويكتب على رأس رقعة أستاذ الدار « والده »، وكان لا يمضى إلى أحد جملة إلا إلى الخليفة فحسب، وما كان يتخلف عن خدمته أحد من أرباب الدولة وكذلك جميع أرباب العلم والأدب والتصوف وسائر طبقات الناس.

* * *

وفيها تقدم الخليفة بإحضار شيخ الشيوخ بين يديه إلى التاج الشريف فلما حضر قال له: « اقعد فخدّم » ولم يفعل، فقال له أمير المؤمنين: « ياشيخ لو قلت لك وأنت قاعد قم كان يجوز لك أن لا تفعل » فخدم وجلس بين يديه، فأشار إليه أن يمضى رسولا إلى صلاح الدين، وكانت هذه الحال من جانب أستاذ الدار ليتشفع إليه فى حق صاحب الموصل والكف عنهم، لأن أستاذ الدار كان كبير الميل إلى صاحب الموصل، فقال (٥٦ب) شيخ الشيوخ: « السمع الطاعة ».

فلما انفصل من عنده خدم، وخرج فنفذ إليه كل ما يحتاج إليه من خيم وخيل وبرك وبغال وفراشين وغلمان ومحفة، وأطلق له ذهباً كثيراً للنفقة، فكتب يستعفى من ذلك، فتقدم إليه بالتوجه، وتقدم أيضاً إلى بشير[1] الخادم أن يمضى فى خدمته، فتوجه ومعه جماعة من أصحابه الصوفية وولده عز الدين، وكان حاجبه زين الدين القزوينى، واستخلف بالرباط ولده الأسن ناصر الدين، وكان أحسن الناس صورة، ومضى على ذلك مدة يسيرة ثم رجع، فأمر الخليفة بإخراج الموكب إلى خدمته

(١) فى الأصل: « شريف » وفوقها « بشير ».

وتلقيه. وأن يخرج إليه قاضى القضاة ويلقاه أين كان، ولا يراعى معه قاعدة فالمقصود إكرامه، فنفذ نائب الوزارة إلى قاضى القضاة وعرفه ذلك، وأن يركب معه صندل الخادم وجمال الدولة إقبال وجميع الحجاب، وخرج مع قاضى القضاة جماعة من العدول عليهم اللباس الأسود.

وسار الموكب الشريف ومعهم المماليك الخاص وجماعة الأمراء الكبار، وعبر العسكر أيضاً معهم إلى الجانب الغربى إلى قرية الشحنة، فلما وصلوا إلى رأس السويقة وقف قاضى القضاة فقال له عماد الدين صندل: «ما هذا الوقوف هاهنا؟ نحن قد رسم لنا أن نمضى إلى خدمة الرجل أين كان»، فقال: «أنا ما أتجاوز هذا الموضع خطوة، وهاهنا العادة لتلقى الرسل، وموكب الخليفة — دام ظله — لا يجوز أن يتجاوز أكثر من هذا الموضع»، فقال له: «ياسيدنا، أنت تقول هذا والخليفة هو صاحب الأمر قد تقدّم إلى نائب الوزارة بهذا؟»، فقال: «أنا ما أتجاوز هذا» فبينما هما فى المحاورة والتجاذب وإذا بشيخ الشيوخ قد أقبل فتحدّر (٧، ١) إليه من المكان الذى كانوا فيه لأنهم كانوا على نشز من الأرض، فسلّم على شيخ الشيوخ: الأولُ فالأول، إلى أن جاء جمال الدولة إقبال فسلم عليه وتعانقا على الخيل ثم تأخّر عنه، وجاء صندل ففعل كذلك، وجاء قاضى القضاة فسلّم أيضا واعتنقه؛ وعاد راجعاً إلى بغداد، فقال له صندل: «إلى أين؟» فقال: «نمضى. رُسِم لنا أن نتلقّاه وقد لاقيناه وسلمنا عليه»، فقال: «إيش هذا الفعل؟ أنت تعرّضنا للهلاك، هذا هو العادة فى تلقّى الرسل وكذا عادة الموكب الشريف تريد تترك وتقول كلمات [ما] جرت بمثلها العادة، وتكون أنت واقفا[1] والرجل على الأرض؟»، فقال له قاضى القضاة: «أنا ما يجرى مجراى أحد ولا يجوز لى أن أقول إلا ما يقال لى، وإنما

---

(١) فى الأصل «واقف».

ماقيل لى شيء ، إنما قيل لى : تلقّ شيخ الشيوخ ؛ وقد لقيته» ، فقال الجماعة : « لا تفعل تهلك . هذا ما يرضى به الخليفة » .

وكثر القول فى ذلك والناس على طبقاتهم قيام ، فقال قاضى القضاة : « مبارك . أنزل إليه وأقول له كما جرت العادة أن يقال ، فقل له ينزل قبلى حتى أنزل إليه » ، فمضى ابن السلماسى الحاجب وجماعة من الحجاب الكبار ، فقال لشيخ الشيوخ : « قد استقر أن تنزل حتى ينزل قاضى القضاة » فقال له : أنا ما أنزل ، وما تقدم بإخراج الموكب الشريف إلا لأجلى وإكراما لى ، ماكنت أنا أريد هذا ، وما ينزل إلا هو » ، فجاء ابن المعتمد الحاجب وقال لقاضى القضاة ما ذكره شيخ الشيوخ وقال : « أنا ما أنزل » ، وأكثر الحديث فمضى إلى شيخ الشيوخ وقال : « قد افتضحنا والناس يضحكون علينا ، وأنتما صدرا هذه الأمة من جانب الشرع والدين ، كيف يسمع هذا عنكما ؟ » ، وبالغ فى القول وقرّر أن ينزلا معا من غير أن يتقدم أحدهما على الآخر .

ومضى ابن السلماسى الحاجب إلى عند شيخ الشيوخ يعضّده وينزله ، ومضى ابن المعتمد إلى (٥٧ ب) قاضى القضاة يعضّده ، والناس ينظرون إليهما والخدم أيضا والمماليك والأمراء معا .

فلما نزل شيخ الشيوخ وسار على الأرض رجع قاضى القضاة وترك رحله فى الركاب واستوى راكبا ، فرآه شيخ الشيوخ فقال : « هذه كانت حيلة ، مبارك ، حسن أنا أمضى إلى بين يدى مركوبه » ، وجاء مسرعا إلى بين يدى بغلة قاضى القضاة ووقف هو وشيخ الشيوخ والناس ينظرون ما يقول قاضى القضاة فقال : « أمر بإخراج الموكب الشريف لتلقّيك ياشيخ الشيوخ إكراما لك ، فتقابل ماشملك من الإنعام بتقبيل الرغام ، والله الموفق للإتمام » ، ولم يذكر سوى هذا ، وركب والناس بأسرهم ركبوا تبعا لهما ، وجاء الموكب إلى باب الحجرة الشريفة واستأذن الخليفة ، فخرج إليه مجاهد الدين خالص فأذن له ، وكان أستاذ الدار هناك فدخل وجلس على كرسى بين يدى

الخليفة وشرح له جميع ماجرى فى رسالته وأطال ، والناس يترقبون خروجه ويرجفون على قاضى القضاة ابن الدامغانى بالعزل لكونه عرّض الموكب الشريف إلى ضحك العوام ، وكيف أنه آذى قلب شيخ الشيوخ مع مكانته من الخليفة ، فخرج شيخ الشيوخ ومضى إلى رباطه ولم يحر شيء ، فنفّذ ابن البخارى وأنكر على قاضى القضاة فعله ، فركب قاضى القضاة بعد يوم وجاء إلى شيخ الشيوخ وهو فى رباطه وهنأه بمقدمه ، وقال له « إن أستاذ الدار والنائب قد اتفقا على عزلى ، ويريدون أن يجعلوا لى حجة وتقوّلوا للخليفة . فلما خرجت إلى خدمتك كنت كثير الخوف من أن أعمل مالا يجوز فيكون هو الطريق لهم ، ولا بدّ من إنعامك فى أن تعرّف الخليفة هذه الحال ولا يكون عندك منها شيء » فقال : « لا والله أنت عندى معذور » ، وحضر أرباب الدولة يهنئون شيخ الشيوخ بمقدمه سوى أستاذ الدار وابن البخارى (١٤٨) فإنهما لا يقدران أن يمضيا إلى أحد جملة . وكان الخليفة قد أمر بأن لا يُعترض أحد اعتصم برباط شيخ الشيوخ ولو كان عليه المال والدم ، وكان قد اعتصم به جماعة من أولاد رئيس الرؤساء وجماعة من أولاد ابن العطار وابن القيبى حاجب ابن رئيس الرؤساء الوزير .

* * *

وفيها مات سديد الدولة ابن الأنبارى كاتب الإنشاء ، وفتح له جامع القصر للصلاة عليه ، وما تخلّف أحد من أرباب الدولة خدمةً لأستاذ الدار ، وصلى عليه الشيخ أبو طالب [بن الخل] وحمل إلى مشهد موسى بن جعفر على ساكنه السلام . وتقدم إلى أبى غالب بن الخلال مشرف الديوان أن يكتب إلى الأطراف ، ولم يكن عالما بالإنشاء بل كان خطه جيداً ، وتقدم إلى ابن البخارى وإلى شمس الدين بن السرخسى أن يتقفا على نسخ الكتب إلى الأطراف وتنفّذ إلى ابن الخلال ليكتبها ولا يكلف سوى الخط

ولا يتصرّف فى حرف واحد ، فتقدم إليه بذلك .

وكان موت سديد الدولة ابن الأنبارى فى ذى الحجة من السنة.

* * *

ذكر

ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين بمصر والشام وغيرهما من البلاد من الفتوحات والغزوات فى هذه السنة

ودخلت هذه السنة[١] والسلطان نازل على آمد[٢] محاصر لها مضايق على أهلها ، وكان قد نصب عليها مجانيق عدة وستائر ومنع الناس من أن يبدءوا بقتل رجل من المسلمين ، وكان غرضه أن يستأمنوا ، فداخلهم الطمع حتى أحرقوا بعض الستائر ، فنازلهم السلطان ذات يوم بنفسه ، وكان والدى فى ذلك اليوم قد هجم على كل من كان قد طلع منهم فردّهم على أعقابهم ، وهجم الناس فى إثره بالسلاليم ، فصعد فيها الرجال وملكوا بين السورين وشرعوا فى (٥٨ ب) النقب ، و[مسعود بن أبى على] بن نيسان[٣] يحرّض أصحابه على القتال ، ورمى الناس بالقوارير ، فلما رأى السلطان ذلك أمر الناس بالمنازلة وحرّضهم على القتال ، وأمر بعض أصحابه أن يكتب فصولاً على عيدان النشاب بالإرهاب لمن بآمد من العوام يتوعدهم فيها تارة ويعدهم أخرى ، ففترت عنه مساعدة أهل المدينة وخافوا على أنفسهم ، وكان [مسعود] بن نيسان فيما بينهم مذموم السيرة ، فتقاصروا عن الاستطالة،

---

(١) يعنى بذلك سنة ٥٧٩ .

(٢) كان وصوله الى امد فى السابع عشر من ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ ، هذا وقد تسلم صلاح الدين البلد فى العاشر من المحرم سنة ٥٧٩ هـ راجع فى تثبيت تاريخ دخولها تحقيق الدكتور الشيال فى مفرج الكروب ، ١٣٤/٢ حاشية رقم ٢ .

(٣) كان صاحب آمد هو محمود بن ايكلدى وكان شيخا عجوزا ليس له من السلطة غير الاسم ، اما واقع الامر والتصرف فيها فكان بيد ابن نيسان .

واشتطّ أصحابه عليه وتقبضوا عنه، فبدا له وجه الخذلان وخاف على نفسه، فراسل السلطان فى السلم والاستعطاف له قبل الأمان، فأصبح السلطان ذات يوم والناس على ماهم عليه من المنازلة فى الحصار إذ خرج من المدينة جماعة من النساء فقصدن سرادقه مستجيرات بكرمه يسألن الصفح، وكنّ نسوة أمير المدينة ورئيسها، وطلعن سحرة ذلك اليوم وقصدن خيمة الأجلّ القاضى الفاضل [وزير صلاح الدين]، فآوائهنّ إلى فناء خيمته، وسعى فى الشفاعة لهنّ إلى السلطان فى طلب الأمان، فتشفعن فيما طلبته وأعطين الأمان على أنهم إن أقاموا توفرت عليهم الأموال والأملاك، وإن تحوّلوا سهّل عليهم الانتقال، ولم يسألن فى البلد لعلمهنّ أنه لايخلى على من به، وانما سألن إذا تسلّم المدينة أن يخرجوا نفائس أموالهم، فأعطين الأمان أن يخرجوا بكل مايقدرون عليه من نفائس أموالهم مدة ثلاثة أيام.

وتقدّم السلطان بردّ النساء بالإكرام والاحترام، ونفذ ابن نيسان يذكر أن غلمانه وأصحابه خرجوا عن طاعته وأنه لايقدر على نقل أمواله، فندب [السلطان] لهمن خواصه من يعينه ويراعى أمواله، وأخرج له دواب كثيرة من اصطبلاته لإعانته، فخرج ابن نيسان من آمد وضرب خيمته فى ظاهرها وجعل ينقل مايقدر عليه من درهمه ودينار ونفائس جواهره وأمواله، ونقل أيضاً ماقدر عليه (١٥٩) من أوانى الذهب والفضة، . ولم يقدر فى تلك الثلاثة أيام إلا على تحويل الأمتعة الكريمة الثمينة، وفاز جماعة من أصحابه بما أصابوه من أمواله، وكان يخرج من داره عشرة أحمال من المال فيذهب فى الطريق بعضها، فلما انقضى الأجل المضروب وقد عجز [ابن نيسان] عن نقل سائر ذخائره ترك أخاير الذخائر، وكانت أبراج المدينة ودورها ومساكنها[1] قد ملئت من أجناس الغلات وأجناس

---

(١) « ماكنها » فى الاصل .

آلات الحروب وغير ذلك من الأموال ، فترك ذلك جميعه ومضى لسبيله ، ولو رشد لكان آوى إلى ظل السلطان ولم يبعد عن جنابه .

* * *

ذكر تسليم آمد الى نور الدين (١) محمد بن قرا ارسلان

ولما تسلم[٢] السلطان مدينة آمد نصب على سورها أعلامه أول يوم فتحها وذلك فى العشر الأول من المحرم من السنة المذكورة ، وأمر بتسليمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان ، وكتب له بها وبأعمالها تقليداً ، وكان قد سبق له منه الوعد بذلك ، فتسلمها بما فيها من الذخائر من الأمتعة والأسلحة وآلات الحروب وأجناس الغلات والحبوب مالا يحصره العدد ، وسلم إليه دساتير[٣] المخازن سائرها .

وكان فى المدينة برج يحتوى على ثمانين ألف شمعة ، فقيل للسلطان : « هذه آمد فيها ذخائر تربى قيمتها على ألف ألف دينار ، وما دخلت عند الوعد بآمد فى شرط ولا قرار نخذها لمهامك ، ونور الدين محمد [بن قرا أرسلان] يقنع بآمد فارغة » فقال [صلاح الدين] : « لاسبيل إلى أخذ شىء من ذلك ، فإن نور الدين صار من أشياعنا وأصحابنا ، ولا نضن[٤] عليه بهذه الأشياء ، وهبنا أنا وهبنا له الأصل وبخلنا عليه بالفرع[٥] فما يليق ذلك بكرمنا »

---

(١) كانت وفاته فى سنة ٥٨٠ هـ ، انظر النجوم ٦/٩٨ .

(٢) أضاف الدكتور الشيال فى نشره لمفرج الكروب ، ٢/١٣٦ ، س ٦ — ٩ عن نسخة اخرى رجع اليها عبارة خلت منهـــا المراجع المتعلقة بهذه الفترة نوردها فيما يلى لتكتمل الصورة « ولما تسلم السلطان آمـــد أحضر بين يديه محمد ايكلدى الذى كان فى الظاهر صاحب البلد فرآه شيخا كبيرا فاكرمه واحسن اليه وأمر نور الدين بالاحسان اليه وان يقيم عليه ما يكفيه له ولاصحابه ففعل ذلك ، ولم يزل عند نور الدين مكرما حتى مات ، رحمه الله » .

(٣) راجع عنها : Dozy: Supp. Dict. Arabes.

(٤) « تطن » فى الاصل .

(٥) راجع مفرج الكروب ، ٢/١٣٦ .

فذكر لنا أنه باع من ذخائرها من الغلات والحبوب والفرش المستعملات الآمدية والبسط والخيام سبع سنين . وإنما ذكرنا ذلك ليعلم (٥٩ ب) أن الدنيا بأسرها لم يكن لها عند السلطان قدر .

ودخل السلطان إلى مدينة آمد يوم الجمعة وأحضر نور الدين محمد بن قرا أرسلان ووكد عليه المواثيق برعاية العهد والمتابعـــة له والمسارعة إلى مايدعوه[1]. واشترط[2] عليه إقامة العدل وإظهار السيرة الجميلة المحمودة فى الرعية

* * *

ذكر بعض الأمثلة بفتح آمد ، كتبها السلطان إلى بعض الأمراء :

«صدرت المكاتبة مشعرة بفتح آمد وذلك بقتال أعمل السيف فيه أعمال المستبق، واستعمل فيه العزم استعمال المرفق ، فلما رأى صاحبها غير ماظنه، وسوى مايعهده، لم ير الغنيمة إلا نفسه وماله وولده، فاستام الصلح فأرخصناه، واستأمن فأمنّاه مما أخاف وخلصناه ، وأغمدنا ما كان مجرداً ، وأجزانا الله من نصره على مالم يزل معوداً ، ورفعنا عنه من القتال يدا ، وأولينا للإحسان يداً ، وكتابنا هذا والمدينة قد فتحت أبوابها ، وعذقت بدولتنا أسبابها ، وتحكّم لسان علمنا فى فم قلعتها ، ويسّرها عدل نشرها بحصب نجعتها، وبعد أن لبستها دولتنا وقّسينا وعد خاتمتها ، والحمد لله الذى تتم النعمة بحمده ، ويسبح الأمل بقصده ، ما يفتح[3] الله للناس من نعمة فلا ممسك لها ، ومايمسك فلا مرسل له من بعده » .

---

(١) راجع الروضتين ، ٤١/٢ .

(٢) « اشريط » فى الأصل .

(٣) منظور فى هذا للاية الكريمة « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، ومايمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » سورة فاطر ٣٥ : ٢ .

فصل آخر

« وقد رُفعت على قلعتها أعلامُنا ، ونفذت فى مدينتها أحكامنا ، ونال صاحبها صلحنا ، وعمّ أهلها صفحنا ، ووفى فيها موعدنا ، ونجح — والحمد لله — مقصدنا ، وألان الله صعبتها ، وحطم فى ثلاثة أيام صعدتها ، ونحن نستعيذ الله من أن يُظن أن لنا فى هذا الصنع صنعاً ، وأن نعتقد أنا نملك لأنفسنا ضراً أو نفعاً » .

فصل آخر

« .... نزلنا عليها ولم يكن إلا (١٦٠) رياضتها ثلاثة أيام ريثما فتح الحصن عن فضله ، واستيقظ صاحبها بجدّ القتال من هزله ، واستأمن فأومن على نفسه وماله وأهله ، وكتابنا هذا ولواء النصر قد مدّ باعه معانقاً لقلعتها ، وخطيب منبرها قائم باسمنا ساعة تسلمها للموافقة لساعة جُمعتها ، ثم أوصلنا نور الدين إلى عقيلة طالما واعدها أبوه وخطبها[1] ، وقبلنا منه مهرها بمعونة فى سبيل الله أوجبها » .

* * *

وكتب بذلك إلى الديوان العزيز بدار السلام كتاباً مستوفى الأقسام ، وأمر الناس بعد ذلك بالرحيل إلى حلب وأعمالها .

وتوجه السلطان من آمد قاصداً إلى الفرات فوصلها فى مراحل ، وعبر الفرات بجميع عساكره وجيوشه ، فلما استكمل عبور الناس رحل[2] متوجها إلى عين تاب ، وكان بها الأمير ناصح الدين محمد بن خمارتكين ،

---

(١) يتضمن هذا الكلام الاشارة الى ان قرا ارسلان بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا حاول مرارا عدة الاستيلاء على آمد فلم يتمكن من ذلك .

(٢) فى الاصل « عبر » وفوقها « رحل » .

فنزل [ابن خمارتكين] منها وجاء إلى السلطان متبرعا إليه بطاعته ، وحمل من الهدايا والتحف أشياء كثيرة فصار من جملة أصحابه وأسبابه ، فنزل [السلطان] بعين تاب ليلة واحدة ، ثم رحل منها إلى حلب .

* * *

ذكر وصول السلطان الى حلب والنزول عليها فى محرم من السنة

ولما نزلنا على حلب ضرب السلطان مخيمه فى الميدان الأخضر وجميع حلقته ، ونزلت العساكر بين قريب منه وبعيد ، وكان الناس كل يوم فى زحف وقتال وطراد ونزال ، وكان تاج الملوك أخو السلطان شجاعا مقداما يركب كل يوم بجماعته وينازل القوم ، وكان السلطان ينهاه عن الإقدام ويكفه من النزال ، وينهى الناس عن الزحف ويقول : « إنما مقصودنا البلد ولا حاجة لنا بقتل أحد المسلمين » ، فأصابت تاج الملوك ضربة فى[1] فخذه فحمل إلى مضربه جريحاً وكان موته فيها وذلك عند تسليم حلب ، وكان السلطان (٦٠ب) على وليمة قد أعدها لعماد الدين زنكى بن مودود فلم يتضعضع له ولما به به . رضوان الله عليه .

وسأذكر[2] منقبة للسلطان وما رزقه الله من الحلم والصبر فى ذلك اليوم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولما جرح تاج الملوك أمر السلطان عساكره بالرحيل من الميدان الأخضر والنزول على جبل جوشن فضرب مخيمه عليه ، وأظهر نية المقام ، وأمر بإحضار بنائين وصناع ومهندسين ، وأمر بحفر أساس قصر يبنيه وقال:

---

(١) انفردت النجوم ، ٦/٩٥ ، بالقول بان تاج الملوك بورى اصابه سهم فى عينه فمات منه بعد ايام على حين ان ابن الاثير ، الكامل ١١/٢٠٢ ذكر ان سهما طعنه فى وركيته فانفكت فمات منها ، انظر بعض اخباره فى Blochet: Hist. de Makrizi, p. 157, No. 4.

(٢) راجع فيما بعد ص ١٤٤ ، س ٧ — ١٠ .

«إن كان البلد منزلا[١] لمن به فهذا منزلنا، ونحن نتصرف فى البلاد والأعمال ونقطعها لرجالنا ونترك حلب على ما بها».

وكان العسكر يركب فى كل يوم ويقف بإزاء البلد صفوفاً من غير زحف ولا قتال، وطال ذلك ودام، ورسلهم تتواتر إلى السلطان بكل كلام قبيح وهو يجمل ويحلم ويعيد إليهم القول الجميل، فلم يزالوا على إصرارهم حتى ضرع عماد الدين إلى السلم.

* * *

ذكر رغبة عماد الدين زنكى فى الصلح والعوض عن حلب

كان عماد الدين [زنكى] بن مودود راغباً فى الصلح عارفاً بعواقب الأمور ففكر فى أمره، ووجد عليه فى كل شهر مما يفرقه على الأجناد ثلاثين ألف دينار، وخشى على نفسه إن طال الحصار أن ينفد ما فى خزانته، وكان يعتمد على رأى الأمير حسام الدين طمان[٢] [الأرتقى] فأحضره واستشار به فيما يدبره من أمر حلب، فأشار عليه طمان بالدخول تحت طاعة السلطان، واقترح عماد الدين أن يعوض[٣] عن حلب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، فضمن له طمان ذلك، ونزل[٤] من باب السر ليلا فدخل

---

(١) «منزل» فى الاصل.

(٢) كان الامير حسام الدين طمان ممن يميلون الى صلاح الدين، انظر فى ذلك Blochet: op. cit., p. 197، هذا وقد مات فى شعبان سنة ٥٨٥ هـ.

(٣) عيب على عماد الدين زنكى بن مودود تنازله عن حلب لقاء اخذه سنجار، ويذكر ابن الاثير، الكامل ٢٠٢/١١، أن بعض عامة حلب احضر اجانة وماء وناداه: «انت لا يصح لك الملك وانما يصلح لك ان تغسل الثياب»، وعنه نقلها ابن واصل فى مفرج الكروب ١٤٢/٢، وان زاد على ذلك ان العامة كانوا اذا رأوه صاحوا به: «ياحمار يامن باع حلب بسنجار»، كذلك ذكر ابو المحاسن فى النجوم، ٩٥/٦، ان البعض عملوا فى ذم ذلك العمل من جانبه اشعارا كثيرة منها قول بعضهم:

وبعت بسنجار خير القلاع
لكلتك من بائع مشترى

(٤) المقصود هنا «طمان».

على والدى الملك المظفر رضوان الله عليه وشرح له جميع ما ذكره عماد الدين، فمضى والدى (١٦١) إلى السلطان وشرح له ما ذكره طمان، فقال له [صلاح الدين] : « إن هذه المواضع التى ذكرها عماد الدين قد جعلناها لك مع ما قطع للفرات من الشرق من بلاد الجزيرة، وأنعمنا بها عليك ولا سبيل إلى أخذها منك . » فقال [المظفر تقى الدين عمر] : « يامولانا إمض هذا الأمر فإنما غرضنا صلاح البيت » فقال السلطان : « إذا رضيت بأخذ هذه المواضع منك نعوضك عنها حلب وقلعتها وأعمالها »

ثم أحضر[1] السلطان الأمير طمان وكتب له خطه الكريم بالمواضع المذكورة وحلف له على ذلك؛ ثم مضى[2] من عنده تمام ليلته فسلم خطه إلى عماد الدين وعرفه إنعام السلطان فى حقه، فطابت نفسه بذلك وأمر بفتح أبواب حلب ففتحت، فعرف الأمراء بذلك والمقدمون منهم ذلك، فمنهم من خجل ومنهم من ندم، فأرسل السلطان إليهم وطيب نفوسهم وبذل لهم من إحسانه ما استرقهم به .

وكان تسليم حلب يوم السبت[3] ثامن عشر صفر من سنة تسع وسبعين، وسأذكر نكتة عجيبة تدل على ذكر منقبة للسلطان ومكرمة نطق بها سر الغيب المكنون على لسان القاضى محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق، وذلك أنه مدح السلطان بأبيات منها :

وفتحكم حلباً بالسيف فى صـــفر
مبشر بفتوح القـــدس فى رجب

---

(١) جرت مفاوضات تسليم حلب بين عماد الدين مودود والسلطان صلاح الدين فى جو من السرية والكتمان فلم يعلم بها سواهمـا وسوى الامير حسام الدين طمان ، حتى اذا تمت الامور على النحو المذكور بالمتن افضى عماد الدين بخبر الاتفاق الى امرائه ، فانفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جورديك وزين الدين بلك .

(٢) أى مضى طمان .

(٣) الوارد فى ابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٤٢ « سابع عشر صفر » ويلاحظ ان فتح صلاح الدين لحلب كان من الامور الخطيرة ، وقد ادرك اهميته وما يترتب عليه من نتائج المؤرخ الصليبى المعاصر وليم الصورى ، راجع
Guillaume de Tyre, op. cit., pp. 1113-1114.

فوافق فتح حلب كما ذكره فى صفر من سنة تسع وسبعين كما ذكرناه ، وفتح القدس فى رجب من سنة ثلاث وثمانين .

* * *

ذكر وفاة تاج الملوك بورى رضى الله عنه

كان السلطان قد عين يوماً لضيافة عماد الدين زنكى بن مودود ، وأعدّ له من الألطاف والهدايا والتحف أشياء كثيرة ، وكان ذلك فى المخيم قبل انتقاله إلى حلب واستقراره بالقلعة ، فمد السماط واستدعى بعماد الدين فجلس إلى جنب السلطان ، فبينا الناس فى (٦١ ب) أسرّ سرور إذ جاءه بعض حجابه فأسرّ إليه بنعى أخيه تاج الملوك ، فما تضعضع لذلك ولم يتغير بشره وبشاشته وطلاقة وجهه ، وأمر سراً بتجهيزه ودفنه ، وأعطى تلك الضيافة حقّها ، فانظر إلى حلم هذا السلطان وحسن صبره على بلائه واختبار الله تعالى إياه .

وأما عماد الدين زنكى بن مودود فإنه أخذ خط السلطان بالمواضع المذكورة[1] بعد عهده وميثاقه ، وخرج بعد وداعه متوجهاً إلى سنجار ، وأقر مظفر الدين بن على كوجك على ما بيده من حران والرها .

ذكر دخول السلطان الى حلب ومقامه فى قلعتها

كان دخول السلطان إلى قلعة حلب يوم تسليمها إليه وذلك يوم السبت ثامن عشر صفر ، وحين استقر بها أفاض العدل ورفع الضرائب وأسقط المكوس ، وتم له حينئذ ملك الشام ، وكتب إلى الأطراف والجوانب لاجتماع العساكر إلى الجهاد ، وعوّل فى الحكم والقضاء بحلب على القاضى محيى الدين

---

(١) وهى سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج : راجع ما سبق ص ١٧٤ س ١١ .

أبى المعالى محمد بن الزكى[١] علىّ القرشى قاضى دمشق فقضى وحكم ، ورتب له فيها نائباً القاضى زين الدين نبأ[٢] بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسى .

* * *

ذكر فتح حارم (٣) وسبب تسليم حصنها

ولما فتح السلطان حلب واستولى على ما حولها من الحصون والمعاقل والأعمال بقيت قلعة حارم مع أحد[٤] المماليك النورية ، فجعل السلطان يراسله وهو يشترط عليه ويغالى فى سومه ، وكان نقيبها حينئذ مستوليا عليها ومعه جماعة ، فخرج مملوك نور الدين عنها — كما جرت عادته — راكبا ، فغلق نقيبها دونه الباب ، وشنع عليه بمصالحة الفرنج وأعلن من فيها باسم السلطان ، فبلغ السلطان ذلك فركب من وقته (١٦٢) وسار إلى حارم فتسلمها ، وحضر النقيب الذى كان بها وجماعته ليطلبوا من السلطان أن ينعم عليهم عوضا عما فعلوا .

وكان بدر الدين حسن بن الداية[٥] حاضراً عن السلطان فقال : « يامولانا ، هؤلاء القوم فعلوا فى حق كذا وكذا ، وخربوا بيتى ، ونقلوا عنى

---

(١) كانت وفاته سنة ٦٦٩ هـ ، ويلاحظ انه اصبح اثيرا عندالتتار عامة وهولاكو خاصة راجع المقريزى السلوك ، ص ٤٣٩ ، ٥٨٩ . راجع ترجمته فى ابن طولون : قضاة دمشق ، ص ٥٢ — ٥٥ .

(١) ذكره المقريزى : السلوك ، ٨١/١ باسم « ندا » ولكنه وارد بالصورة اعلاه فى ابن الاثير : الكامل وابن واصل : مفرج الكروب ١٤٧/٢ ، انظر ايضا الروضتين ٤٧/٢ .

(٣) حارم حصن حصين وكورة تجاه انطاكية من اعمال حلب ، انظر ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ٣٧١/١ ، Dussaud : op. cit., p. 231.

(٤) واسمه « سرخك » ، انظر شفاء القلوب ، ورقة ٢٨ ب ، وابن الاثير الكامل ٢٠٢/١١ .

(٥) هو صاحب حارم وعينتاب وأعزاز .

كل كلام قبيح ، وقد علمت مافعلوا فى حق هذا المسكين وأغلقوا دونه باب القلعة وشنعوا عنه ماذكروه من مصالحة الفرنج ولم يكن كذلك ، فإن رآى مولانا السلطان استخدامهم على هذا الشرط فليستحفظ بهم » ، فضحك السلطان وأمر بطردهم وسلمها إلى أحد خواصه .

. . .

وأما حديث صاحب أنطاكية فإن السلطان حين تسلم حارم اضطرب أمره، ووافق ذلك أوان انقضاء الهدنة، فجاءت رسله بالخضوع والضراعة إلى السلطان ، وسير معهم من أسارى المسلمين جماعة كبيرة إليه ، وانخذل الفرنج فى جانب القدس خوفا منه ، وبدأ السلطان فى تقرير الأماكن والقلاع وترتيب أحوالها .

. . .

ذكر القلاع ومن رتب فيها

أما قلعة حلب فإنه جعل فيها سيف الدين بازكوج واليا ، وولى الديوان العميد ناصح الدين اسماعيل بن العميد .

وأما عين تاب[١] فإنه أبقاها على صاحبها ، وأنعم على بدر الدين دلورم الياروقى بتل خالد[٢] مضافا إلى تل باشر قضاءً لحق مسابقته إلى الخدمة .

وأما عزاز فإن عماد الدين زنكى كان قد أخربها لتتوفر قوته على حفظ حلب ، فإنه[٣] أقطعها للأمير علم الدين سليمان بن جندر[٤] ، وشرع

---

(١) عرفها ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ٩٧٧/٢ بانها قلعة حصينة ورستاق قرب حلب وأن رستاقها دلوك .

(٢) تل خالد قلعة من نواحى حلب ، مراصد الاطلاع ٢٧٠/١ .

(٣) الضمير هنا عائد على صلاح الدين .

(٤) أبو شامة : الروضتين ٤٧/٢ .

[صلاح الدين] فى إظهار العدل وإزالة المظالم، وكتب المناشير لأهل حلب برفع الضرائب والمكوس ، وجاءته كتبُ الأطراف والجوانب بالتهنئة له بفتح حلب .

* * *

ذكر (٦٢ ب) فصول مختصرة من كتب أصدرها السلطان الى الأمصار والجوانب مبشرا بفتح (١) حلب وتملكها

فصل من كتاب إلى خطلبا والى زبيد يذكر فيه فتح حلب ، من إنشاء العماد الكاتب الأصفهانى :

« وأما أحوالنا فقد تناسقت فى النصر ، وتناسبت فى حمد الله تعالى والشكر ، وقد سبقت المكاتبات إليك فى شرح ماشاء الله من الفتوح وسببه ، وقربه لنا من الأمور وهذبه ، فبلاد الجزيرة قد استقرت فى خدمتنا عساكرها ، ودانت لطاعتنا أكابرها ؛ وأمر فيها أمراؤنا ؛ وولى بها أولياؤنا ، وأصبح ربضها إرضاء أصحابنا ، وانصرفت نوابها بتصرف نوابنا ، وعنى ذوو عنادها ؛ وساد ذوو سدادها . ومجّدنا كرامها ؛ وأكرمنا أمجادها ؛ وروّضنا بآلائنا مواحلها فما ضرها أخلفها الحيا أم جادها، وديار بكر لما قصر آمد أمدها ؛ وطالت يد أيّدْنا بالطول فى معاهدة تعهدها وفتحت سوداؤها ؛ واخضرت ببركات أقدامنا فى الإقدام غبراؤها ؛ بعد ما اغبرّت من مثار النقع عند نزولنا عليها خضراؤها، وسكنت دهماؤها؛ وانكشفت غمّاؤها، وصحت سماؤها، وصحّت أسماؤها؛ ووطىء بساط الخدمة ملوكها الصيد ، وأقرّ بالعبودية لنا أحرارها الصناديد، وجئنا إلى حلب [فـ] ـأسرجت لنا وألجمت شهباؤها . وزينت لتزف علينا حسناؤها ، وأقامت بعذر خفرها فى تمنّعها عذاؤها ، ودانت لأرضنا

---

(١) فيما يتعلق بأهمية فتح حلب وتقدير وليم الصورى له وخطورته على موقف الفرنجة عامة وتأييد القوى الصلاحية انظر
Runciman: Hist. of the Crusades. II, p. 435 & note 3.

فى أرجائها سماؤها ، وتحقق فى عُرفنا رجاؤها ، وأرَجت بعَرفنا أرجاؤها ، وظهر حقها ، وخفى باطلها ، وتروّض ماحلها ، وتحلّى (١٦٣) عاطلها ، وعقل جاهلها ، وغنم عاقلها ، وانتظمت فى سلك الممالك حصونها ومعاقلها ، وانضمت إلينا عساكرها ؛ واستفاضت بنا مفاخرها ، وأطاعت عواصى عواصمها ، وامتلأت المغانى بمغانمها ؛ وظهرت المعالى فى معالمها ؛ ولم يبق إلا التوفر فى الجهاد من سائر الجهات ، وانحاز غزات الله فى النصر على العداة ، والسعى فى تملك القدس وافتتاحه ، وتحصيل مراد الإسلام والنزول على اقتراحه » .

* * *

فصل من كتاب آخر

« ولما تسلمنا حلب وتسنّمنا قلعتها وفرعنا شهباءها ، وسكّنا دهماءها ، وباكرناها بالإيلاف فألفيناها على البكارة ، واجتلينا عروسها أفقية الإنارة ، روضية النضارة ، وزُفت إلينا حسناء لم [يغلها] المهر ، وعقيلة ألانَها لنا الدّهر ، فقرّ بنا سرير السرور ، وصفى لأهلها حبير الحبور ، وتأصلت فيها أروقة الأمور ، وتوالت النعم من الله عزّ وجل فى وفود الوقور ، وتبلج صبح اليُسر وَوجهُ البشر بالإسفار والسفور ، وغضّ الظلم طرفه ، وكفّ العسف كفّه ، وقبض الجور يده ، وأوضح العدل نَجده ، وحطّ الحظ لثامه ، وأخذ الأمر نظامه ، ووجد الشرع أحكامه ، وانجابت الظلماء وطلعت الشموس ، وانفرجت الغماء وطابت النفوس ، وأسقطت المظالم وأطلقت المكوس ، واهتزت الأعطاف من سكر الشكر حين طافت من ألطاف الله على الأمة الكئوس » .

* * *

فصل من كتاب آخر

« صدرت المكاتبة مبشّرة بما من الله به من الفتح العزيز ، والنصر الوجيز ، والنجح الحريز ، والموهبة الواهبة قوة الاستظهار ، والعارفة المعرفة زيادة الاستبصار ، والنعمة التى تَجلّت النعماء فجلت ، وتَحلّت فى مذاق

الشكر وحلّت ، وعلت بإعلاء كلمة (٦٣ب) الدين فأنهلت وعلّت ، وطالت يدها بالطول وبأياديها أطلّت ، وذلك فتح حلب الذى در حلبه ، ونجح طلبه ، وبلغ أمد الفلح غلبه ، ووضح لحبّ هذه الدولة القاهرة لحبّه ، فإنه قد سكنت الدهماء مذ سكنت الشهباء ، ونشرت بها بالأمس أختها السوداء ، لما كان لنا فى فتحها اليد البيضاء ، فاخضرّت الغبراء ، وآلت ألا تعبر بعدها إلا فى سبيل الله الحضراء ؛ وتلاها فتح حارم الذى انجلت به الداهية الحمراء ، وعلت بالعواصم لقمع بنى الأصفر رايتنا الصفراء ، واهتزت طرباً إلى الجهاد فى أيدى شائميها ومعتقليها البيضاءُ والسمراء ، فقد زال الشغب ، وأسفر عن الراحة التعب ، وخمد اللهب ، وأخذت الغزاة الأهبْ ، وشفّت غيمة الرأى بالمدى حلب ، وقد اتحدت كلمة الإسلام وعساكره ، وصدقت زواجره ، وربحت بالتنقل فى الأسفار متاجره ، والحمد لله الذى ضاعف المنن ؛ وأضعف عن شكرها المَنن ، وشمل بالألفة الشمل ، وأفضل بظهورنا ، وأظهر الفضل » .

. . .

فصل من كتاب عن السلطان الى بعض امرائه بانشاء الفاضل

« صدر إليك هذا الكتاب والأوامر بحلب نافذة ، والرايات بأطواق قلعتها آخذة ، وجاء أهل المدينة يستبشرون ، وقد بلغوا ما كانوا يؤملون ، وأمنوا ما كانوا يحذرون ، والحمد لله على هذا المصير ، وعلى ما منّ به من هذا الطول الطويل فى الزمان القصير ، ونحن نستنصر بالله مولانا فنعم المولى ونعم النصير » .

. . .

فصل من كتاب آخر من انشائه

« إن الله سبحانه يسوق مقاديره إلى مواقيتها ، ويؤلف من قلوب أهل طاعته على طواغى الكفر وطواغيتها ، ويتم ما سبق فى مشيئته من جمع كلمة هذه الملة وتأليف مشيتها ، ومن ذلك ما أنعم الله تعالى به (١٦٤) من فتح

مدينة حلب سالماً سفر فيها وجه الإسلام ، ورق قلعتها سلما بمشيئة الله تعالى إلى دار السلام » .

. . .

ذكر ورود بشارة الى السلطان وهو بحلب وردت عليه من مصر تبشره بظفر أخيه الملك العادل ابى بكر بطائفتين من الفرنج : بحرية وبرية

اتفق ورود هذه البشارة من مصر إلى السلطان عند فتح حلب تبشره بظفر الأسطول البحرى وظفره ببطسة من الفرنج ، وذلك أنه نهض[1] مغيراً فعاد بعد تسعة أيام وقد ظفر ببطسة من الفرنج فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجاً من الفرنج ، فأسروهم جميعا وأتوا بهم إلى مصر . وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من محرم من السنة المذكورة .

وأما الظفر الثانى البرّى وذلك أن عصبة من الفرنج الذين كانوا بالداروم[2] وكانوا لا يزالون ينهضون إلى أماكن بعيدة ومواضع شاسعة يرومون غفلة من بها لأمنهم وبعدهم عن ديار الشرك ، فنهضت منهم طائفة مغيرة ، فاتصل خبرهم بالملك العادل سيف الدين أبى بكر أيضا ، فأنهض إليهم جماعة من أبطال المسلمين وجماعة من أصحابه ، وقدّم عليهم سعد الدين كمشبه وعلم الدين قيصر وسيّرهم نحوهم ، فتوافى الفريقان إلى ماء يعرف بالعسيلة سبق الفرنج إليه فملكوه ، فلما أقبل المسلمون — وقد اشتدّ بهم العطش — ترجّل الفرنج وآووا إلى جبل هناك يعتصمون به ، فحمل المسلمون عليهم جملة واحدة فقتلوهم عن آخرهم ، ولم ينجُ منهم إلا رجلان ، ورجع

---

(١) كان ذلك فى سنة ٥٧٩ هـ ، ولم يحدد السلوك ١/٨٠ موضع هذا اللقاء الحربى على ان جعل قدوم المنتصرين بالاسرى الفرنج الخامس من المحرم ، ولعل قول المخطوطة « الخامس عشر من محرم » اشارة الى ورود الخبر على صلاح الدين .

(٢) الداروم قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر وقريبة من البحر ، انظر ياقوت : معجم البلدان ٢/٥٢٥ ، ٥٣٧ ، ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٢/٥٠٨ .

المسلمون برءوس عدوّهم إلى مصر ، وكان ذلك فى اليوم الرابع والعشرين من محرم من السنة المذكورة(١) .

* * *

ذكر رحيل السلطان من حلب الى دمشق

ولما رتب السلطان أمور حلب وأعمالها وذلك (٦٤ ب) بعد مهادنة صاحب أنطاكية ودخوله تحت أوامر السلطان وضراعته ، لذلك أمر عساكره بالرحيل ، وكان فى جمع جمّ وعسكر كثيف ، واستصحب معه عساكر الجزيرة وحلب ، فكان أول منزلة نزلها بحاضر قنسرين(٢) حتى تكاملت العساكر ، ثم رحل إلى تل السلطان ومنه إلى الحباب .

ثم رحل الناس متفرقين ، منهم على طريق المعشرية ومنهم على طريق يمنع.

ولما وصلنا إلى حماة أمر والدى الملكُ المظفرُ بإحضار سماط لضيافة السلطان، وأسبغ من إحسانه على جماعة من الأمراء والأجناد ، ورتّبنا أحوال حماة ورحلنا منها فنزلنا الرستن(٣) ، ثم [رحلنا] إلى حمص فضرب السلطان مخيمه على عاصيها ، ورحل منها فنزل الزراعة ثم إلى اللبوة ،ورحلنا منها فنزلنا بعلبك ، ثم رحلنا منها متوجهين إلى دمشق فنزلنا قريبا منها ثم توجهنا إليها وخرج أهلها للقائنا . ودخلنا إلى دمشق وقد استبشر الناس لقدومنا، فلم يلبث السلطان بدمشق سوى يومين، وأمر الناس بالخروج إلى الجهاد لغزاة بيسان .

---

(١) أورد المقريزى : السلوك ١/٨٠ — ٨١ خبر التقاء المسلمين بالفرنج عند الداروم فى أقل من سطرين ، وعبارة المقريزى رغم قصرها — تكاد تكون عبارة المؤلف فى المتن .

(٢) بكسر القاف وفتح النون أو كسرها مع التشديد ، وهى مدينة بينها وبين حلب مرحلة ، وقد ذكر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٣/١١٢٦ أن الروم لما غلبوا على حلب فى سنة احدى وخمسين وثلاثمائة خاف أهل قنسرين وجلوا عنها ، ولم يبق بها الا خان تنزله القوافل ، انظر أيضا ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، (ط . دى خويه) ص ٧٤ ، والمقدسى : شرحه ، ص ١٩٠ ، Gaudefroy-Demonbynes: La Syrie à l'époque des Mamelouks,p. 10, n. I.

(٣) بليدة بين حمص وحماة ، كانت على نهر العاصى ، انظر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٢/٦١٥ . وانظر أيضا
Dussaud : Topographie de la Syrie, p. 146, note 3

ذكر غزاة بيسان

كان سبب رحيل السلطان من دمشق اغتناما لمن كان معه من العساكر، فسار بعساكره مجداً فى سيره منزلاً منزلاً إلى أن قطع الأردن[١]، وكان عبورنا فى مخاضة الحسينية[٢] وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة، فلما وصلنا إلى بَيْسَان[٣] وجدناها وقد أخلاها أهلها وخرجوا منها خوفاً منا، وكان قد تقدمت مقدّمتنا فوقعت على خيل ورجل من الفرنج، وكان مقدمهم ابن هنفرى فأوقعوا بهم، فقتلوا راجلهم وأسروا جماعة من فرسانهم، وفر ابن هنفرى.

ووصل الخبر بأن الفرنج الملاعين قد جمعوا فرسانهم وأنهم ناهضون إلينا، فبينا نحن كذلك وإذا جموعهم قد أقبلت، وكانوا (١٦٥) فى ألف وخمسمائة رمح ومثلهم تُرْكبلى[٤] وخمسة عشر ألف راجل بالعُدد الكاملة، فلما قربوا منا رجفوا كالأسود الضوارى، فنبذنا إليهم الجاليشية[٥] فجالت أمامهم وعبّيْنا الأطلاب.

فلما رآى الفرنج عساكر الإسلام داخلهم الرعب وأخلدوا إلى الأرض، والتجأوا إلى الجبل وجعلوه ظهرهم، وخندقوا حوله خندقا، وأقاموا على ذلك

---

(١) وذلك فى تاسع جمادى الاخرة، راجع ابن الاثير: الكامل ١١/٢٠٤.

(٢) الارجح ان المقصود بها مخاضة الحسينية على نهر بردى، راجع
Sauvaire: Description de Damas, II, p. 60.

(٣) بفتح الباء وسكون الياء، مدينة بالاردن بالغور الشامى، وبها عين فيها ملوحة يسيرة تعرف بعين الفلوس، راجع: ياقوت معجم البلدان ١/٧٧٨ وابن عبدالحق: مراصد الاطلاع ١/٢٤١، وانظر Dussaud: op. cit., p. 348, et n. 6;
Blochet: Hist. d'Egypte de Makrizi (R.O.L.) p. 158, note 3.

(٤) الضبط من مفرج الكروب، ٢/١٤٩ وتتضح من تحقيق الدكتور الشيال شرحه حاشية رقم ١، ان التركبلى مصطلح بيزنطى كانوا يطلقونه على افراد فرقة تركية الاب او عربيته يونانية الام، راجع أيضا حبشى: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس.

(٥) أى مقدمة الجيش.

خمسة أيام آخرها يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة فى أضيق حال يتوقعون نزول الهلاك بهم ، ونحن نتوقع فى كل يوم منهم الحملة التى هى عادتهم ، والمغيرون من أصحابنا فى كل يوم يشنّون الغارة فى بلادهم فيغنمون ويسْبُون ويقتلون ويأسِرون . فلما رأيناهم لا يبرحون ولا يحملون رحلنا عنهم ، فاشتد راجلهم لكى يحملوا فرجع عليهم ، وكان ذلك يوم الخميس سادس عشر الشهر المذكور ، فما صدقوا حتى خرجوا من موضعهم منهزمين على أعقابهم يتبع بعضهم بعضاً ، ورجعنا ظافرين بغنائمهم ومن أسِرَ منهم ، وشرع السلطان من وقته ذلك فى غزاة الكرك .

* * *

ذكر غزاة الكرك

ولما رجع السلطان من غزاة بيسان منصوراً غانما جعل طريقه إلى جهة باب من أعمال الشراة[1] ونزل بأذرعات . واستأمن إليه أهلها المسلمون فأمّنهم ، وكان ساكنو تلك الديار مسلمين من قديم الزمان وترى أولادهم مع الفرنج .

ثم خيّم على البرية ، وضاقت تلك الأودية بالعساكر ، ثم نزلنا على حصار الكرك وأمر السلطان بنصب المجانيق فنصبت ، فرمينا من بها بالحجارة وطال ذلك ؛ ثم تحول السلطان إلى الربض فنزل بدار الرئيس وحرّض الناس على الجهاد ، وكان غرضه بالانتقال إلى هنا ليقرب من

---

(١) اكتفى ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٢/٧٨٨ فى تعريفها وتحديدها بقوله « صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول » ، أما اذرعات (بفتح الهمزة وسكون الذال وكسر الراء) فقد عرفها ايضا بانها « بلد فى طرف الشام وتجاور ارض البلقاء » على حين اسهب Dussaud: op. cit., p. 325 فى وصف موقعها على الخرائط الجغرافية القديمة وأهميتها التاريخية .

المنجنيقات (٦٥ ب) المنصوبة ليشاهد مواقع النكاية فى القلعة ، ورتب السلطان مع ذلك نوبة الرماة ، فما كان أحد يقدر أن يخرج رأسه من بين الشراريف ، فبينا نحن كذلك إذ وصل الخبر باجتماع الفرنج فى الموضع المعروف بالواله ، فقال السلطان : « هذا حصر يطول ، وقد ضايقنا الحصن ومن فيه وسلبنا أعماله ، وهذه نوبة لايخشى فواتها ، ومانزال بعون الله تعالى نعاود هذا الحصن ونزوره حتى يسّر الله فتحه ، والآن فإن الفرنج قد تحاشدوا واجتمعوا فلا يفرقُ جمعهم إلا جمعنا » . وبقى الحصار دائماً إلى انقضاء شهر الله الأصب رجب ، والسلطان مع ذلك مشتغل بعمارة البلاد وتدبير الممالك، وذلك عند وروده إلى الكرك استدعى أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر من مصر ليعول عليه بولاية حلب ، ويقلد والدى الملك المظفر — ابن أخيه — ولاية البلاد المصرية .

* * *

ذكر ولاية والدى الملك المظفر — رضوان الله عليه مصر وأعمالها وتقليده اياها

ولما وصل الملك العادل من مصر إلى الكرك طلب من السلطان ولاية حلب[1] وأعمالها وقد سبق وعدُ السلطان بها لوالدى فأنعم السلطان لأخيه بحلب وأعمالها ، وأنعم لوالدى — ابنِ أخيه — بولاية الديار المصرية وحكمه فيها ، والذى أعطى والدى الملك المظفر — رحمه الله — بمصر ، فمن ذلك : البحيرة جميعها بمصر وهى بأربع مائة ألف دينار، والفيوم وهو بثلاثمائة ألف دينار ، وقاى وقايات وبوش وهى بسبعين ألف دينار،

---

(١) راجع رواية ابن ابى طى فى الروضتين بشأن رغبة العادل فى ولاية حلب .

ثم عُوّض[1] عن بوش بسمنود والواحات وهى بستين ألف دينار ، وفوة والمزاحمتين وهى بأربعين ألف دينار ، وحوف رمسيس وهو بثلاثين ألف دينار ، وكان له فى كل شهر على الاسكندرية ألف وخمس مائة دينار ، وحكمه على جميع مصر (١٦٦) والولاية بأسرها وصرّفه فيها تصرف المُلاك ، وكتب له بذلك تقليدًا ، وذلك فى شعبان من السنة .

وهذه نسخة المنشور :

« الحمد لله المتعالى جلاله ، المتوالى أفضاله ، القديم كماله ، العديم مثاله ، نحمده على إحسانه : العظيم نواله ، العميم اتصاله ، ونسأله أن يصلى على سيدنا نبيه محمد المصطفى الفصيح مقالهُ ، الفسيح فى الشرع مجاله ، الشفيع المقبول فى الأمة سؤاله ، وعلى آله وصحبه الذين هم نجومُ الهدى ، وأنصارُ الحق ورجاله . أما بعد فإنا منذ استودعَنا اللهُ ملكَ بلاده ، واسترعانا أمر عباده ، ومكن لنا فى الأرض . وبسط أيدينا بالبسط والقبض ، وأقدرنا فى مملكه على العقد والحل والإبرام والنقض ، وملّكنا زمام الزمان بالأمر والنهى ؛ ونهج لنا وبنا سبل الرشاد وعفى طرق الغى ؛ وناط الهدى بتوفيقنا ؛ وأماط الضلالة عن ملكنا ، فهو للإحكام وهى للوهى ؛ وأعز بنصرنا الإسلام وأداله ، وأذل الكفر وأزاله ؛ وثبت الحق ومكنه ونفى الباطل وأزاله ؛ نفترض أداء شكر نعمته وإن كنا معترفين بالقصور عن أدائه ؛ ونرعى له فى بلاده وعباده حق ماخصنا به من عموم استرعائه ؛ فلا يسترعيها من

---

(١) الوارد فى ابن واصل : مفرج الكروب ، ١٥٢/٢ ، ان صلاح الدين زاد فى اقطاع تقى الدين ابن اخيه : « القايات وبوش » على أن رواية الروضتين تتفق مع النص أعلاه فيما يتعلق ببوش فقط . هذا ويلاحظ ان العبارة من « البحيرة جميعها .. » الى .. حوف رمسيس وهو ثلاثين ألف دينار » واردة فى هامش على ورقة منفصلة فى احدى نسخ السلوك التى رجع اليها الدكتور زيادة فى نشره للسلوك ، ٩١/١ ، هامش رقم ٢ وهى مطابقة فى الفاظها لعبارة المتن مما يحمل على الظن بان المقريزى استعمل نسخة المضمار دون الاشارة اليه .

الولاة إلا أولاهم برعاية الرعية ؛ وأكرمهم للتقوى التى تقوى بها المكارم وتوقى المكاره ، وأحكمهم فى الرأى الذى يصح ويصح به فى الأمور المحكم والمتشابه ، وأقومهم على سنتنا على إقامة فروض العدل وسننه ، وأعرضهم بحق إنعامنا فى تقبل منحه وتقلد مننه ؛ وأطولهم فى الطول باعا ؛ وأفضلهم اتساقاً فى المناخ واتساعا ، وأسماهم فى بقاع العلى ارتفاعا ، وأولاهم لأبكار المحامد والمفاخر افتراعا ، وأجلاهم فى مشارق السعادة طلوعا (٦٦ب) وأجلهم على واجباتها اطلاعا ، وأبذلهم فى الجهاد اجتهاداً ، وأكثرهم فى سداد الثغور الإسلامية سداداً ، حتى تعود الولاية بإيالته منتظمة العقود ، والمملكة ببهجته مبتسمة السعود ؛ والسياسة بنضرة نظره مورقة العود ؛ والمصالح بصوب صوابه مصوبة المعاهد ، وتصل النصر بمضاء مضاربه مغموداً فى مفارق الأعداء مفارقا للغمود ؛ وتمحو أيامنا البيض بتوليته سيئات الليالى السود ؛ ولما كان ولدنا الأجل الملك المظفر تقى الدين — أدام الله علوه وضاعف رفعته وسموه — ذا المجد الشامخ ، والجد الباذخ والرأى الراجح الراسخ ؛ والعدل المجير المجيب استصراخ الصارخ ، والإصابة التى تقصر عنها خطى الخطوب الخاطية ، والقدرة المتوالية التى لديها العظائم ذوات الأقدار المتواطية ، والشيمة الزكية الذكية التى تضوع نشرها المتأرج ، وتوضح نشرها المتبلج ، وشيم عارض كرمها المتوج ، ورجى بحر سماحها المتموج ، والمناقب التى أشرقت زواهرها فى سماء السمو ، وألقت أزهارها فى رياض النمو ، وتليت آيات مدائحها بلسان العدو ، وجليت عرائس محاسنها فى مطالع العلو ، والبسالة التى فرق جموع الأعداء بأسها الشديد ، وثلم حدّ الكفر حدها الحديد ، وأعلى جدّ الإسلام جدُّها الجديد ، وهد ركن المنكر ركن عُرفها المشيد ، وهو مقتدٍ بسنتنا العادلة فى إحياء سنة العدل ، وتقوية بنية الفضل ، ورفع منار الشرع المنير ، وأعلى معالم المجد الأثيل الأثير ، وخفض جناح الرحمة للصغير والكبير ، وإسعاف العافى وإعانة العانى وإغاثة المستجير ، وقلدناه ولاية (١٦٧) الممالك والبلاد والثغور والديار المصرية ، وعذقناها

بكفايته ، وأوليناها النظام بولايته ، حليناها بحلية إيالته ، وعوّلنا عليه سياسة مملكتها ، وحماية حوزتها ، والذب عن بيضتها ، وفوضنا إلى نظره أمورها ، وجلونا فى آفاق تدبيراته الموافقة نورها .

«وأمرنا كافة الأمراء والنواب والعساكر المنصورة المصرية على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم بامتثال أمره والانقياد لحكمه ، والتصرف على رسمه ، والحضور إذا طلبهم ، والهبوب إذا ندبهم ، فإنا عضّدنا به سلطاننا ، وأمضينا سيفه — إذا اقتضته حدود الله تعالى — فى الآجال ، وأطلقنا قلمه فى الأرزاق التى يجيزها الله تعالى لكافة الأولياء والرجال ، وفوّضنا إليه هذه البلاد تفويضاً ماضية أحكامه ، متسق نظامه ، موصولة بمشيئة الله تعالى أيامه ، ووليناه إياه تولية من قد عرف قيامه بحق الولاية ، وانتهاءه فى مصالح الإسلام إلى الغاية ، وانتظام خلاله الكريمة بشروط الكفاية والكفالة ، وإضاءته فى قضاء الفضائل بالحسن والحسنى من الحلية والحالة ، وتوفره على الجهاد فى سبيل الله عزّ وجلّ بحراً وبراً بتجهيز أساطيله وكتائبه ، واعتماد كل ما يدلّ منه على مزيد الشكر فى استمداد مزيد مواهبه ، وقيامه بتوفيق الله المعدّ له ، وكشفه بالرأى الثاقب مهمات الخطوب المشكلة ، وبسط اليد والقول فى العارفة والعاطفة الأولياء بالنبل واللين ، وانتضاء سيفه وسوطه فى السطو على الأعداء لاقتضاء دَيْن الدين ، حتى تعلو كلمة الإسلام وتثبت ، وحتى تنبَتّ عروق الكفر من أرض الله وتنبت ، وحتى تكتب المذلة على العداة فتُكْبت ، وحتى تجمع القلوب والألسنة على محبته (٦٧ ب) وشكره ، وتتفق الكافة على الائتمار لطاعة أمره ، ونحن نسأل الله تعالى أن يوفقه ويسدّده ، وأن يعضّدنا به ويعضده ، ويؤيدنا بحسن تدبيره ويؤيده ، والمستقر له من إقطاعه ما أثبت فى الديوان ذكره ، ويُبيّن فى هذا المنشور قدره ، وهو ماسبق ذكره ، فليتول نعمة الله تعالى بالشكر الذى يرتبطها ، وبسط اليد الذى ينشر عليه ويبسطها ، ونشاط الهمة الذى يطلقها من عقال التوقف وينشطها ، مستمسكا

من التقوى بأوثق عروة ، عاقداً بها من حب بذل الحباء أصدق حبوة ، فائزاً من النصر بالنجح فى مغازيه ومساعيه بأوفق خطوة ، ساميا من العز والجلالة والمهابة على أسمق ذروة ، مؤيداً من الله بالتسديد فى صرف كل حطب وتصريف كل خطوة » .

. . .

ثم توجهنا إلى مصر بالعسكر المصرى وذلك فى شعبان بمقتضى المنشور فسار فيها أحسن[1] سيرة محمودة ، وأقام فيها منار العدل بأتم سياسة .

* * *

ذكر ولاية الملك العادل سيف الدين
حلب قلعتها وأعمالها

وكتب له أيضاً منشور وذلك فى شعبان من السنة ونسخته .

« الحمد لله ذى السلطان القاهر ، والإحسان الظاهر ، والامتنان الوافر ، والبرهان الباهر ، نحمده على إنعامه المتضاعف المتظاهر ، وإفضاله المتوافد المتوافر ، حمداً يؤذن بالمزيد للشاكر ، ونسأله أن يصلى على سيدنا نبيه محمد المصطفى ذى الشرع الطاهر[2] ، والنور الزاهر ، وآله الأكارم الأكابر ، ذوى المفاخر والمآثر ، ونسلم تسليما كثيراً . أما بعد فإن لله عندنا نعماً إن نعدها لا نحصيها ، ومناً قد جمع الله لنا بشمولها الدائم شمل أعمها وأخصها[3] ... ومواهب واضحة المذاهب فى التواصل والتناصر ، ومنائح متظاهرة العوادى والروائح (١٦٨) فى التوافد والتوافر ، وأيادى ملأت الأيدى والآمال نجـــاة ونجاحاً ، وعوارف عمّرت منا ومن أوليائنا الصدور والقلوب انشراحاً وارتياحا ، ولقد أتانا من الملك ماقامت لنا بالحق حجته ، ووضحت فى نهج السعادة بنجح الإرادة محجته ، وأيدنا عليه بالنصر الماضى النصل ، والعز الجامع

---

(١) فى الاصل « حسن » .
(٢) فى الاصل « الظاهر » .
(٣) فراغ فى المخطوطة يقدر كلمة واحد .

الشمل. حتى أذل لنا رقاب الأعداء، ومهد لنا وبنا أسباب الولاء، ومَلَّكَنا قياد العباد، وكفّ عنا وبنا عنان ذوى العناد، وجعل سيوفنا وأقلامنا الأقاليم أقاليد، وفرق جموع الكفر ببأسنا أشتاتاً عناديد، بالفتوح الأبكار بصوارمنا الذكور افتضاضها واقتضاؤها، والحتوف نحو الكفار بعزائمنا المصيبة المضارب فى ضرب الهام وطعن النحور انتهاضها وانتهاؤها، وثغور الإسلام عن ثنايا الثناء علينا ضاحكة الثغور، وأوامرنا فى إعلاء أعلام الدين منتظمة الأمور، والجهاد من جميع جهات ممالكنا برا وبحراً متسق الجموع، والتوحيد لقمع أهل التثليث ثابت الأصول نامى الفروع، والحمد لله عودا بعد بداء على ما والاه من نعمه وأولاه، وأعاده من منحه بعد ما أبداه. «رب»[1] أوْزعنى أن أشكرَ نعمتك التى أنعمتَ عَلىَّ وَعَلى وَالدىّ وأنْ أعملَ صَالِحاً ترْضاه». ومن جملة نعم الله سبحانه وأجلها وقوعاً، وأجلاها فى الجلالة طلوعاً، وأجدرها منا بالإخلاص والحمد، وأشرفها لنا فى مطالع السعد، وأوجبها لفرض الشكر. وأحراها بدوام الإشاعة والنشر. أنه سبحانه وتعالى شد أزرنا بأخينا الملك العادل سيف الدين ناصر الإسلام أبى بكر، أدام الله علوه ورفعته. وسموه ونعمته، وبسط يده وأيدّ بسطته، ذى الباع الطويل، والطول الجزيل، والصدر الرحيب. والرأى الراجح المصيب، والجد المنيف المنير. والأناة والحزم والثبات (٦٧ب) والقبول؛ الذى وفر له فى القلوب مواد المودات؛ والجود الذى ينهل جودُه بإسعاف العافين من سماء السماح؛ والعاطفة التى تلحق الراجين جناح النجاح؛ والعارفة الفارعة، والمعرفة الصادعة، والهمة الصادقة. والمهابة الرائعة الرائقة، والسياسة الجامعة المانعة، والبسالة التى زلزل الكفر بأسُها، وتقوضت بها قواعد البدعة وأساسها، والتدبير الموافق فى حفظ الممالك ونظم عقودها، والنظر الصائب الصادق فى ترتيب المصالح وصون حقوقها

---

(١) قرآن كريم، سورة النمل ٢٧ : ١٩.

وحدودها ، والعدل الذى أوضح سننه ، وأقام بين الرعية فروضه وسننه ، والسيرة التى تحلى التواريخ بأيامن أيامها ، وترُدُّ بها الدولة مرامى مرامها ، والاعتقاد الذى أنارت آفاقه من التوفيق بأنوار الخلوص ، وتوفر حظه من عموم تأييد الله عز وجل إياه على الخصوص ، فالملك بإبالته محكم القواعد ، مبرم المعاقد ، مستهل العهاد آهل المعاهد ، والدولة بإدالته شديدة السواعد ، سديدة المساعد ، صافية الموارد ، صادقة المواعد ، والدين بنصرته سامى القدر ، عالى الأمر ، نامى النشر ، والإسلام منه بناصره زاهٍ ، والكفر من بأسه بقامعه واهٍ ، والقدَر بقضاء الله تعالى على موافقة أمره آمرٌ ناه ، والشرع بمحافظته على أحكامه وملاحظته أسباب نظامه مفاخر مُباه ، فهو الشقيق الشفيق الذى لإيثارنا يؤثر ، ولرضانا يقصد وعلى مرادنا يجرى ، وهو كما قال الله تعالى عن موسى عليه السلام (واجْعل[1] لِى وَزِيراً مِنْ أهلِى، هرُونَ أخِى، أشدُدْ به أزْرِى، وأشرِكهُ فى أمْرِى) والحمد لله الذى عضدنا بمساعدته ، وأسعدنا بمعاهدته ، وأظهرنا بنجدته ، وأنجدنا بمظاهرته ، وأظفرنا بموافقته ، ووفقنا لمظافرته .

«ولما أنعم الله تعالى علينا فى هذه (١٦٩) السنة بالفتوح المستفاضة والممالك المستضافة ، وحكم لنا فى توسيع دائرة المملكة بالزيادة[2] والأنافة . وفتح لنا البلاد ، وملك من كل ما رمناه القياد ، جرينا على أحسن الشيم ، فى إحياء سنة الكرم ، فما فتحنا معقلاً إلا ويدنا له مالكة واهبه ، والحازم من يكون ذا هبةٍ للدنيا فإنها ذاهبه ، وقد جعلنا لأخينا الملك العادل من الممالك التى تملكناها ، والبلاد التى فتحناها ، والمعاقل التى استضفناها ، أوفى نصيب ، وأصبح النجح منا لداعى رجائه أسرع مجيب ، ورأيناه أحق من كل بعيد وقريب ، وقلدناه أمور البلاد والمعاقل والثغور ، وفوضنا إليه فيها جميع الأمور ، فبيده الحل والعقد ، والبسط والقبض ، وإليـــه

---

(١) قرآن كريم ، سورة طه ٢٠ : ٢٩ — ٣٢ .

(٢) فى الأصل « بالزيادة على » .

الولاية والعزل والإبرام والنقض ، وله القول الثابت والأمر النافذ ، وإلى فضله يرجع العابد ، وبعدله يلوذ العائذ ، ونحن نرغب الله عز وجل فى أن يوفقه ويؤيده ويسدده ، وسبيل الأمراء والولاة والنواب والأعيان والرعية والأصحاب الانقياد لأمره المطاع ، ومقابلة مراسمه بالامتثال والاتباع ، والرجوع إلى بابه ، والجرى على حكم نوابه ، والنهوض إلى الغزوات فى خدمة ركابه ، والوفود فى حالة الضراء إلى المربع المَريع والمنبع المنيع من جنابه ، فإنه فسيح الأولياء بالآلاء ، والأعداء بالأعداء ، ولديه كشف الغماء بالنعماء ، وفى مهاب المحاب منه يضوع أرج الرجاء ، ومن شيمته الاقتداء بسنتنا فى بسط العدل والإحسان ، وقبض أيدى الظلم والعدوان ، وإسداء المعروف ، وإيعاد[1] الملهوف ، وإعلاء معالم المعالى ، وتكثير حسنات أيامه لتكفير سيئات الليالى ، والمجاهدة فى سبيل الله رابط الجأش لتأليف الإيلاف من جيوش (٦٩ب) الرباط ، وعمارة البلاد بحسن سيرته التى لم تزل مستقيمة على الحدود فى الإسقاط ، ومشايعة الشريعة المطهرة فى جميع أحواله أخذاً بالاحتياط ، مؤيداً بالنصر من الله والتأييد والتمكين ، حتى تنسى فى تلك الثغور غزوات سيف الدولة غزوات سيف الدين . ويحقق لجميع المسلمين قمع [المرتدين[2]] ، ويعلى كلمة الإسلام بما يوليه من النصر الظاهر والفتح المبين ،

وكتب له فى آخر المنشور تفصيل ما أنعم عليه به من حلب ومعاقلها .

ثم توجه إلى حلب فى شهر رمضان من السنة .

• • •

ذكر الرحيل من الكرك الى دمشق

ولما رأى السلطان أن أمر الكرك يطول ، وأن شهر الصيام قد أظله ، وأن العسكر قد تعب وليس معه من آلات [الحرب] ما يكفى انصرف

---

(١) فى الاصل « واعدا » .

(٢) كلمة ضائعة فى الاصل ، وقد اضيف ما بين الحاصرتين اجتهادا ليستقيم المعنى .

بعسكره راجعاً إلى دمشق فدخلها بعد أيام، واستبشر الناس بقدومه .

* * *

ذكر وصول صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير من الديوان العزيز ووصول محيى الدين [أبو حامد محمد بن القاضى كمال الدين] بن الشهر زورى معهما رسولا عن صاحب الموصل

وذلك فى ذى القعدة :

ذكر السبب فى ذلك :

ولما عرف صاحب الموصل ماتسنى للسلطان من فتح آمد وحلب وغير ذلك من البلاد خاف على نفسه وبلاده ومال إلى الاستعطاف ، فاستدعى من الديوان العزيز إرسال شيخ الشيوخ للشفاعة إلى السلطان ، فوصل ومعه بشير [الخادم] ، وندب صاحب الموصل معهما القاضى محيي الدين أبا حامد محمد بن محمد الشهرزورى ، وكان قدومهم إلى السلطان فى دمشق ، ولما علم بقدومهم استقبلهم بالإكرام والإجلال والاحترام ، فلما قرب بعضهم من بعض نزل ونزلوا له ثم ركبوا جميعاً ، فأنزل شيخ الشيوخ بالرباط على المنيبع ، وأنزل القاضى محي (١٧٠) الدين فى جوسق بستان الخلخال ، ونزل شهاب الدين بشير جوسق صاحب بصرى على الميدان .

ثم أحضر السلطان شيخ الشيوخ وجرى بينه وبينه أحاديث شتى فى معنى صاحب الموصل واستخلاف السلطان على موصله ومراده ، فجرى من ابن الشهرزورى كلام فيه اشتطاط[1] واشترط أشياء ، وكان السلطان فاتر العزم فى العود إلى الموصل فهاجه على المسير إليها ، ثم أمر لهم بالإكرام والتشريفات والنفقات والعطايا السنية ، ورحلوا فنزلوا على القصير فراجع

---

(١) اورد ابن واصل : مفرج الكروب ١٥٦/٢ صورة لبعض ما قاله الشهرزورى من كلام احنق صلاح الدين .

نفسه الشريفة وقال : « قد استحيينا من مسير شيخ الشيوخ إلينا مرة بعد أخرى ، ولابد من رضاء المواقف الشريفة المقدسة » ، فركب فى خواص عسكره وأتى القصير ، فنزل فى خيمة صدر الدين [شيخ الشيوخ] ثم كشف له عن حاله وما جاء به ، وأنه قد أتى ليحوز مراضى الديوان العزيز ويكتب نسخة اليمين فى الصلح ، ففرح بذلك شيخ الشيوخ فرحا عظيما ، وأرسل إلى محيي الدين [بن الشهر زورى] يعلمه بالأمر ووصول السلطان لإصلاح ذات البين بجواب الرسالة الإمامية .

فلما رأى محيي الدين بن الشهرزورى تواضع السلطان ترفّع وقال : « أنا بعد ما جرى من الحال لا رغبة لى فى الحضور ، ولعلكم اعتقدتم أنه ليس لنا مُظاهر ولا مؤازر » وأشار إلى سلطان العجم وبهلوان .

فلما سمع السلطان ذلك تبسّم وقام بعد وداع صدر الدين ورجع إلى دمشق ، فكان بها بقية ذى القعدة وذى الحجة ، وكان قد عزم على الجهاد والمسير إلى حصار الكرك عند دخول سنة ثمانين .

ووصلنا كتاب السلطان إلى مصر بتحريض والدى الملك المظفر وحثه على إنفاذ العساكر المصرية للجهاد . وذلك فى العشر الآخر من ذى الحجة من السنة المذكورة .

• • •

فصل من (٧١ب) مصدرة :

« قد تقدمت المكاتبة إلى مجلس الملك المظفر لازالت أيامه بالملك والظفر منعوتة ، وصلاة صلاته بالحمد والإخلاص موقوتة ، وولاة ولائه مرموقة ، وعداة آلائه ممقوتة ، ومنايا مناوئيه مكتوبة ، وشناة شانه مكبوتة ، وعرفناه ما شمل من نعم الله وفاض ، واستنار من لألاء آلائه واستفاض ، وأن الله أغاث بغيوث رحمته وبغوث نعمته حتى سالت أوديتها ، وسفكت دماء المحول بسيوف البوارق فلا يقال قودها أو ديتها ، فدم الحرب مطلول ، وسيف البارق مسلول » .

ومنها :

« وقد كاتبنا أمراء الأطراف باستعدادهم لاستدعائهم ، وأن يحزموا بجمع العساكر أوامرهم لأمرائهم ، فما منهم إلا من يسابق إلى تلبية النداء ، ويسارع إلى إجابة الدعاء ، ويعشق ولا عشق لقاء الأحبة لقاء الأعداء . وهم الآن ينتظرون شتات شمل الشتاء ، وإذا رأوا آذار مقبلاً أقبلوا ، فإنهم مذ شاهدوا ضرع العارض حافلاً احتفلوا ، وأجمعوا أمرهم قبل الاجتماع بأمرنا فعلموا بما فعلوا ، والله عز وجلّ يمد الإسلام بفتوح تفوح أرجاؤها بأريج العزّ ، ويسمى المجاهد فى سبيله ما وعدهم من درج الفوز ، وقد عزمنا — مع خروج شباط — [على] المسير إلى حلب ، لأن هناك العساكر يقرب اجتماعها ، والغنائم يتحقق اتساعها ، والمشاورات الصائبة يتدانى استماعها ، والهيبة فى النفوس تفخم ، والصيت فى الآفاق يعظم » .

* * *

ذكر وقعة قراقوش الملكى المظفرى فى هذه السنة (١)

وفيها سار شرف الدين من جبل نفوسة إلى قابس فى يومين وليلتين وذلك مسيرة ثمانية أيام ، واعتقد أنه بقابض قابس أو يهجمها ، فلما وصلها لم يقدر على ذلك ، وأخذ (١٧١) القصد الذى لها على الساحل ، وفيه يبيع الروم ويشترون ، وأخذ منه أشياء كثيرة من أمتعة وفضة وغلة وغير ذلك ، وأقام عليها على قرية من قراها سبعة أيام ، ووصله فى اليوم الثامن الثقل الذى له ، ورحل من القصر المذكور ، ونزل على قلعة حسن فأقام عليها شهراً يدبر الحيلة فى أخذها إلى أن كان فى بعض الليالى ساهراً ،

---

(١) خلى ابن الاثير من أحداث هذه الواقعة .

فأحضر خواصه ومن يشير عليه وقال : « قد رأيت أن أعمل لهذه القلعة الليلة عملا أرجو أن آخذها بمشيئة الله تعالى » ، فقالوا : « وما ذلك العمل الذى يكون ؟ » ، فقال : « إن هؤلاء ينزلون فى كل يوم يقاتلون أسفل الوطاء ، وأريد أن أكمن الليلة ثلاثمائة فارس من خلف هذا المنشار[1] وأكون فى الصبح راجعاً نحو القتال ، ويكون بينى وبين الكمين إشارة من دق كوس أو ضرب بوق ، فإذا رجعت ونزل القوم يقاتلون استجررناهم وانكسرنا قدامهم فيطمعوا فينا ، فإذا بعدوا عن الموضع وهم لا يشعرون أن خلفهم كميناً[2] ضربنا حينئذ البوقات دفعة واحدة ، فيركض أصحابنا من موضعهم ، فلا يكون لهم عمل إلا أنهم إذا وصلوا إلى رأس المنشار الذى يتصل بعقبة المطلع ترجلوا عن خيلهم وطلعوا إلى القلعة لا يبقى فيها من يقاتلهم ، وإذا رأى المقاتلة ذلك انخذلوا ، فإذا رجعوا منهزمين ركبنا أكتافهم ، وقاتلهم أولئك الذين صعدوا الطريق ومنعوهم من الطلوع قتلناهم عن آخرهم أو أكثرهم وملكنا القلعة » ، ثم قال : « يروح فلان وفلان » حتى عدّ ثلاثمائة وأمرهم أن يكمنوا بحيث قال .

فلما أصبح ركب وزحف فكان ما اعتقده من نزول أهل القلعة وقتالهم فى الوطاء ، واستجرهم وانكسر لهم ، فلما أبعدوا ضرب الكوسات والبوقات ، فأقبل الكمين من موضعه فسبق إلى الطريق إلى القلعة ، وأقبل المقاتلون فوجدوا الطريق قد ملكت عليهم فانخذلوا ووقع فيهم السيف (٧١ ب) ، فلك أولئك القلعة وما احتاجوا إلى مساعد ، فكان عدة من قتل فى ذلك اليوم ألفين وثمان [مائة][3] رجل من البربر ، وترك الباقين واحتوى على القلعة ومافيها ، وغنم منها أموالا عظيمة جمة فرّقها على أصحابه ، ووجد فيها

---

(١) المنشار حصن قريب من الفرات وقيل جبل ، مراصد الاطلاع ٣/١٢٢٠ .
(٢) فى الاصل « كمين » .
(١) ما بين الحاصرتين ضائع فى الاصل .

من الغلات شيئاً عظيما ، وكان عندهم بنفوسة غلاء ، فأعطى الأجناد منها ما أقام بهم بقية سنتهم ، ورحل عنها ونزل على قلعة يقال لها « أم أدوت » وهى لا يطمع فى قتالها ، فأقام عليها أياما وراسل أهلها وقال لهم : « أعطيكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وأعطيكم من الضياع ما تريدون » ، فأبوا عليه ولم يعيدوا عليه جوابا ، فأقام أياما لا يكلمهم ولا يراسلهم ، فأرسلوا إليه : « إننا نفعل ما أمرتنا به ، وأعطنا الأمان على أنفسنا وأموالنا ، وأعطنا ما نريده من الضياع كما بذلت لنا » ، فقال : « قد كان ذلك ، وأما الآن فما عندى لكم أمان إلا على أنفسكم وأموالكم دون عطاء ضياع » ، فأمسكوا عنه أياما ما أجابوه ، ثم طلبوا منه الأمان على الأنفس والأموال لا غير (١) ، ثم لم يشعر بهم إلا وقد نزلوا إليه بأجمعهم بكرة يوم من غير أمان ولا كلام ، فعجب من عقولهم وقال : « كيف نزلتم ؟ » فقالوا : « أبيت أن تعطينا الأمان إلا على أنفسنا ، وما نحن كفار نخاف الأسر وقد نزلنا » ، فقال : « ما منعكم(٢) أن تقبلوا ما أعطيتكم إياه أولا وثانياً ؟ » ، فقالوا : « سعادتك ، فإنا تجلدنا فى الأول ورجونا رحيلك ، وما كان عندنا ماء يكفينا ، فلما امتنعنا وأقمنا أياماً وما رحلت رجونا أنك تعطينا ما تعطينا فى الأول ، فلما امتنعت منه طمعنا فى الرحيل أيضا مثل الدفعة الأولى ، فلما لم ترحل طلبنا الأمان الثانى فأبيت ، فلم يبق إلا النزول عند فراغ الماء » ، فأخذ القلعة وما فيها ، وما كان فيها حاصل مثل قلعة حسن ، وجعل بها نائبا ، ولم تزل فى يده إلى أن أخذها من نائبه المايرقى (٧٢١) ، وأخذها المايرقى بالعطش أيضا ، إلا أن المايرقى ما رتب فيها أحداً بل تركها لأهلها الأولين .

رجعنا إلى الحديث :

ثم رحل شرف الدين [قراقوش] عنها وعاد إلى نفوسة ، وهذه

---

(١) بعدها فى الاصل عبارة « فأبوا ، وما أجابوه أياما » ووجودها يجعل السياق مضطربا .

(٢) فى الاصل « أمنعكم » .

القلعة بالقرب من جهة مطماطة ومن نفزاوة[1] ، فأما الحمامة فإن الذى يكون نازلا عليها يشاهد بساتين الحمامة ، وأما نفزاوة فبينها وبين القلعة جبل يسمى اللوح .

ونفزاوة بين بلاد كثيرة يكون فيها ما يزيد على أربع عشرة مدينة ، ولها نحو من مائتى ضيعة ، وكلها نخيل وزروع على العيون ، وكان فيها مدينة تسمى « طرة » ، وإلى جانبها مدينة تسمى « بيامن » ولها مقدم يقال له « سيد الناس » وله أخ يقال له المنصور ، وكان بينه وبين أهل بشترى[2] (مدينة عظيمة من مدائن نفزاوة) عداوة .

ولما سمع بقوة شرف الدين وتدويخه البلاد التى إلى جانبه أراد أن يجعل عنده يداً ويبلغ غرضه من أهل بشترى بيد شرف الدين فكاتبه وراسله وحلف أن يسلّم إليه طرّة وبلمن وما لهما من ضياع ويعينه على ملك ما فى نفزاوة .

فلما تحقق شرف الدين منه ذلك علم أنه يملك ذلك إذا دخل سيد الناس فى طاعته ، وكان الحديث بينهما فى أيام الربيع ، وكان شرف الدين ذلك الوقت نازلا بالساحل : ساحل طرابلس ، وكان قد وصل إليه من الديار المصرية جماعة فيهم شجاع الدين بن شكل ، وقد فرح بهم وزاد عسكره فصار نحواً من ثمانى مائة فارس من الأتراك والأكراد ، فأعطى ابن شكل شجاع الدين قصوراً ما بين كندة والسويقة يكون فيه أربعون ضيعة جُعل له خاصاً ، ولمماليكه معه ثمانية ، ودخلُ الموضع يكون قريباً من أربعين ألف

---

(١) بكسر النون وسكون الفاء مدينة هامة من أعمال افريقية ، بينها وبين قفصة مرحلتان ، راجع ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٣/١٣٨٢ .

(٢) ضبطها مراصد الاطلاع ١/١٩٩ بفتح الباء وسكون الشين وفتح التاء والراء واكتفى فى التعريف بها بانها مدينة بافريقية .

دينار مأمونية ، وقال : « إذا فتح الله البلاد وملكناها أعطيك ما هو أكثر من هذا وأعظم » ؛ هذا بعد أن خلع عليه وأعطاه خمسين جملا وعشرة من الخيل وثمانية ألف دينار .

وسار شجاع الدين بن (٧٣ ب) شكل معه فاستغل الموضع الذى أعطاه وزاد فى استغلاله بحرابه ومصادرة أهله ومطالبتهم بما لا يقدرون عليه، فرفع ذلك إلى شرف الدين فقال : « هذا الموضع قد أعطيـ[ـته له][1] فلا أنكّده عليه ، إن شاء أن يعمّره وإن شاء أن يخرّبه » .

ولم يزل شرف الدين فى تلك الخطة إلى آخر السنة المذكورة .

* * *

سنة ثمانين وخمس مائة

فيها تقدم الخليفة إلى داود صاحب الديوان أن يخرج إلى الكوفة ويعدّ نخيلها ويحقق عدده ويستوفى الخراج من أهلها ويعتبر معاملاتها ، فتوجه [داود] وأقام بها مدة يسيرة . فخرج أهلها من بين يديه ، وجاء جماعة منهم إلى بغداد يستغيثون من يده ويلازمون الخطيب كل يوم جمعة ويبالغون فى الاستغاثة ، وكثر ذلك منهم . فبرز الأمر بإحضار صاحب الديوان ، وكان قد نقل إلى أستاذ الدار ونائب الوزارة ابن البخارى أن شيخ الشيوخ يعرض على الخليفة مكتوبات سرّا ، فنسب ذلك إليه فأخذ كل منهما يقبح فعله .

وأما صاحب الديوان فإنه حُمِلَ إلى ديوان الزمام فجلس فى الخزانة

---

(١) ما بين الحاصرتين ضائع من الاصل .